فِي بَيْتِي

« وبيت الكاتب هو العالم بما رحب .
في هذه الصفحات رحلة حول العالم
الواسع بين جدران بيت صغير ... »

عباس محمود العقاد

فى بيتى

اقرأ ٣٣

تصدرها دار المعارف
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وانطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف

اقرأ ٣٣ — أغسطس سنة ١٩٤٥



فى بيتى

قلت لك ياصاحبى إننى أحب مدينة الشمس لاننى أحب النور

أحبه صافياً وأحبه مزيجاً . وأحبه مجتمعاً وأحبه موزعاً ،

وأحبه مخزوناً كما يخزن فى الجواهر وأحبه مباحاً كما يباح على

الأزاهر ، وأحبه فى العيون وأحبه من العيون وأحبه إلى العيون !

ويوم سكنت فى هذا المكان ، ونظرت من هذه النافذة ،

أعجبنى أننى أفتحها فلا أرى منها إلا النور . . . . والفضاء

والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور .

وكيف يكون فضاء ، ما يملأ العينين ، ويملأ الروح ، ويصل

الأرض بالسماء ؟

قلت لك ياصاحبى إننى أحببت النور وسكنت فى مدينة النور!

وأود أن تفهمنى حين أقول لك إننى أحب النور

فإننى لا أحبه لأنه يرينى الدنيا وما فيها ، أو لأنه هو واسطة

الرؤية وأداتها ، ولكننى أحبه لأراه ولو لم أر شيئاً من الأشياء

وقديماً كنت أقول أن الأرواح تخف فى النور كما تخف

الأجساد فى الماء ، كأنما هى تسبح فيه وتطفو عليه

وكنت أقول

النور سر الحيـــاة النور سر النجـــاة
ألمحـــه بالروح لا لمح العيون الخـــواة
ما تبصر العـــين من معنـــاه إلا أداة

وكنت أحسبه « روحانية » ترى بالعين و . .

أرى الشمس روحانية فى جمالها و إلا فما بال النفوس بها تسمو
إذا فاض منها النور هزت قلوبنا سعادة روح ليس يعرفها الجسم
ولو أنها من لذة الحس عفتها كما قد يعاف اللمح والسمع والشم
كرهت من الدهر الكثير ولم يزل بقلبي من شمس النهار هوى جم
ترى كل يوم وهى عندى كأنها غريب عن المُدْرَ وصف له واسم
عجبت لأرض تخطر الشمس فوقها وتشرق فيها، كيف يطرقها الغم

فلا أتكلم بالمجاز حين أقول لك ياصاحبى إننى أراه من عالم الروحانيات و إننى أشبع منه الروح والعين ولا أشبع منه العين وكنى ، و إنه شىء يُرى ويُرى ويُرى ولا تمل رؤيته ولا يشبع من النظر إليه . وليس هو الشىء الذى غاية ما يكفيك منه أنه ريك الأشياء

قال صاحبي : هذا من عمل النشأة الأولى. هذا من عمل أسوان!

قلت : أو تظن ذلك ؟ ولم لا تظن أن النشأة الأولى تزهدنا فيما هو مبذول لدينا ، بل فيما هو مسلط علينا ؟ . . .

هل رأيت شاعراً من شعراء الصحراء يتغنى بالشمس المجيدة أو الشمس الفاخرة أو الشمس الباهرة كما يتغنى بها أبناء الغيوم أو أبناء الشمال ؟

لست معك ياصاحبي فيما قدرت ، ولعلى كنت أقدر معك هذا التقدير لو أننى نشأت فى أسوان أحب الظلال وأكره سطوة النور وأحسبه من قضاء الله الذى يطاق ولو فى بعض المواسم الساعات .

ولكننى على ما رأيت أستطيع أن أقول لك: بل إننى لأحب النور على الرغم من النشأة فى أسوان ، وإننى أحبه حين أنظره وأحبه حين أنظر به ، وأحبه حين اهتدى به فى عالم البصر ، وأحبه حين اهتدى به فى عالم البصيرة ، لاننى أحسبه سر الأسرار ، أو أحسبه سبيل الهداية إلى سر الأسرار ، وأوشكت أن أومن بهذا الحسبان كل الإيمان .

قال صاحبي : ما أعجب أن يكون أظهر الأشياء هو أخفى الأشياء !

قلت يا صاحبي لا عجب أن يكون أظهر الأشياء هو المُظهر للخفاء فى كل معانيه ، ولا أحسب أن حجاباً من الحجب الكونية سيرتفع فى مجال العلم أو مجال الحكمة من طريق غير طريق النور، مهما يطل الزمان

وكنا نتحدث فى المكتبة ، فتناولت بعض الكتب التى تبحث فى الروح والمادة ، وقلت لصاحبي : أعرفت حجة السياسى الفيلسوف « أرثر بلفور » فى نفى الصلة بين عالم المادة وعالم الروح ؟ . . . إنه يقول إن الروح لن تؤثر فى الأجساد إلا بجسد مثلها . فكيف يكون هذا التأثير ؟ ان الروح تخالف الجسم فى تكوينه فكيف تعمل فيه عملها ! وما هى الأداة الجسدية التى تتلقى عنها دوافعها ! فإما انهما شيئان منفصلان فلا تتأتى بينهما صلة على وجه من الوجوه ، وأما أنهما شيئان متشابهان فلا اختلاف اذن بين تكوين الأرواح وتكوين الأجساد !

قال صاحبي : إخاله قوى الحجة فى مقاله

قلت : وكذاك إخاله ، ولكننا ذا شككنا فى أحد العنصرين عنصر المادة وعنصر الروح — فأيهما أولى بالشك فيما تراه ؟

قال : على كل حال لا أستطيع الشك فى المادة وهى تحيط بى وتصدنى وتصدمنى ، إذا أنا غالطت نفسى فيها

قلت : بل فى المادة تستطيع أن تشك وتفرط فى الشك ، قبل أن تواتيك دواعى الشك فى عالم الروح

وإنما ساء فهم المادة والروح معاً من تصور الأقدمين هذه وتلك إذ وضعوهما موضع النقيضين وجعلوا المادة كثافة لا حركة فيها وجعلوا الروح حركة لا كثافة فيها

فهل المادة كذلك ؟

هل هذه الكثافة التى تصدمها بقدمك وتضربها بيدك هى الحقيقة التى لا تستطيع إنكارها ؟

أقول لك كلا . . . . أنك حين تضرب الأرض بقدمك فتزعم أنك صدمت الحقيقة التى لاتقبل المراء؛ إنما تصدم شيئاً غير الكثافة أو الجرم الذى يحسب عند بعض الناس وجوداً لا يقبل الإنكار . فإنما الوهم كل الوهم هذه الكثافة ، وإنما الوجود الحق هو ما وراءها من قوة تصدم القوى فتصدم الحواس

هذه الكثافة المادية لاشىء يا صاحبى لولا القوة التى تكمن فى أطوائها . . . وإن شئت مصداقا لذلك فافرض أن يدك التى تقف عند هذه الخشبة قدزادت قوتها الف ضعف أوعشرة آلاف، ثم عد إلى لمس الخشبة بتلك القوة المضاعفة فهل تقف عندها ؟ . . كلا . . . إنها لا تقف عندها بل تعبرها كما تعبر الماء أو كما تعبر الهواء

أو تعال إلى الماء والهواء وهما مثال التخلخل فى تلك الكثافة المادية ، فادفع الماء بقوة من بعض العيون.. انك إذن لتضربه بالسيف القاطع فلا يمضى فيه و يرتد إليك ، وادفع الهواء بقوة من بعض الفوهات . . . إنك إذن لا تثبت أمامه على قدميك

فليست الكثافة المادية هى الحقيقة التى لا مراء فيها ، بل القوة هى الحقيقة الكامنة فى تلك الكثافة وفى كل مادة ملموسة أو محسوسة

قال صاحبى : مهلاً . مهلاً . وأين هذا من النور ؟ وأين هذا من سر الأسرار ؟

قلت : صبراً يا صاح . إن كل جسم من الأجسام يتألف من الذرات ، وكل ذرة من هذه الذرات تتألف من النواة

والكهارب ، ثم من الحركة أو من طاقة الأشعاع والنور :
تملصت كثافة المادة كلها ووصلنا إلى الشعاع والأشعاع : وصلنا
إلى النور ، واقترب بنا ولا نزال نقترب كثيراً من عالم الحركة التى
لا كثافة فيها ، وابتعدنا ولا نزال نبتعد كثيراً من عالم الكثافة
التى لا حركة فيها . إننا هبطنا بالكثافة المادية إلى أدناها ، إننا
نظرناها بالأحداق ثم دقت حتى عن النظر بالأحداق . نعم إننا
لم نصل إلى طرف الروح الأقصى ، ولكننا وصلنا إلى طرف المادة
الأقصى ، أو لعلنا قد عرفنا طريق القنطرة بين العدوتين إن لم
نكن قد أقمناها وشرعنا فى العبور عليها . ماذا بقى من المادة
الغليظة الجاسية ؟ ماذا بقى من الجرم الجاثم الذى يناقض الروحانية ؟
إننا نقترب . إننا نقترب . إننا نقترب . إننا مع النور نصل إلى
الملتقى الموعود ، ولعلنا لا نصل إليه — إن وصلنا من طريق غير
هذه الطريق

قل إن الكون حركة لا مادة فيه . ذلك أيسر لك من أن
تقول : إن الكون جرم لا روح فيه !

قل إن الكون نور . قل إن الله نور السموات والأرض ،
فإذا قصر بك الحس عن نور الله فثق أن هذا الضياء الذى يملأ

الفضاء هو النور الإلهى الذى كتب لابن الفناء أن يراه

***

وكان النهار بساماً مدلاً بشمسه ، مزهواً بنوره ، كأنما يحس روعته فى الأنظار وبهجته فى الأرواح ، وكأنما يتوهج من نظر العيون إليه كما تتوهج الوجنة الصبوح تحت لمحات الأحداق . كان نهاراً مبتكراً عليه جدة لا تحسبها قد مضت عليها سويعة من يوم ! .. خلقاً مبتكراً يخيل إليك أنه يتلألأ فى فضائه الأول للمرة الأولى . وهل هنالك من فارق بين نور نهارنا هذا و بين النور فى أبعد مكان من الفضاء ، وفى أبعد فترة من الزمان ؟ ها هنا شىء على الأقل تستطيع أن تقول إنه لم يفتك أن تراه قبل ألف ألف من السنين ، و إنك تذهب معه إلى أبعد من مذهب أبى العلاء حين سأل الفرقدين !

واسأل الفرقدين عمن أحسا   من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على بياض نهار   وأنارا لمدلج فى سواد

إن الفرقدين وأخواتهما فى السماء لأطفال تلعب فى حجر هذا الشيخ السرمدى ، يلوح لك من جدته اليوم كأنه لم تنقض عليه ساعة من نهار !

قال صاحبي وهو يرسل الطرف فى السماء ، ولا نهاية لمد البصر تصعيداً ولا تصويباً ولا من يمين ولا شمال : قصرت عين تحسب وهى تنظر إلى هذا النور أنها تنظر الى شىء مكشوف لاعمق فيه ولاطوية وراءه : كاشف الخفاء هذا هو ينبوع الخفاء!

وشاء أن يتكلم بلغة المكان ، لغة المكتبة ، لغة المجازيين والبلغاء ، فقال :

ونحن إذن فى برزخ الأنوار : وراء الجدران نور الشمس فى مدينة الشمس الخالدة ، وبين الجدران نور القرائح ونور الحكمة ونور البيان !

قلت : مجاز حسن وإن طال به عهد أصحاب المجاز . الكتب علم ، والعلم نور . ولكنني لا أحسبه مجازا يجرى فى النفس كما يجرى فى لفظ اللسان . فهل من الحق أننا نواجه المكتبة كما نواجه النور ؟ وهل خطر لك قط أن تسأل نفسك : كيف تبده الكتب الكثيرة — مجتمعةً فى مكان واحد — من يدخل عليها لأول مرة ؟ كيف يقع ألف كتاب أو عشرة آلاف كتاب موقعها ممن يُفجأ بها ويعرف ما هى وإن لم يعرف معناها ؟ إننا فى هذه الحضارة قد تعودنا منظر الكتب متجمعات بالمئات والألوف .

ولكننا خلقاء أن نتجرد من فعل العادة ولو لحظة عابرة لننظر إلى هذه الظاهرة من جانب غرابتها لا من جانب ألفتها . فكيف تبدهنا رؤية الكتب لمئات من أصحاب القرائح والعقول محشورة فى بضعة رفوف ؟

إننى لا أسأل عن أولئك القراء والدارسين الذين ألفوا عشرة الكتب بالليل والنهار . إن هؤلاء ينظرون إلى كتبهم كما ينظر الجوهرى إلى الثروات المخزونة عنده فى صناديق البلور من نوادر الفصوص والأحجار الكريمة ، أو كما ينظر البستانى إلى أحواض الزهر وهى تترعرع أو تذبل بين يديه ، أو كما ينظر صاحب القصر إلى أسراب الحسان المقصورات فيه . أو كما ينظر المهندس إلى الأزرار التى فى لوحته وقد ينطلق كل زر منها بما يحرك مدينة بأسرها ، وكلهم يملكون زمامهم أو زمام تلك المرئيات وهم يحسون بها ، وكلهم يحضرون منها ما ألفوه وتعودوه وكرروه وقد يغيب عنهم منها جانب المفاجأة والغرابة . ولكننى أحب من حين إلى حين أن أستغرب ما آلف وأن آلف ما أستغرب . ويثير هذا الشوق فى خاطرى أن أشهد وقع هذه

الغرابة مرتجلا فى بعض النفوس ولا سيما النفوس التى تقارب الكتب من بعيد

قال صاحبي : وماذا وقع من صورتها فى نفسك كلما استغربت ما ألفت منها

قلت لا أحدثك بهـذا الآن . و إنما أحدثك بما شهدت وعاينت ، ثم أحدثك بما استدرجنى إليه الخيال كلما ألقيت بمقادتى إليه

لا أنسى وهلة فتاة ذكية حين دخلت هذه المكتبة عرضاً فى بعض الأيام

كانت على شىء من التعليم ، وكانت تميل إلى القراءة كلما اتفقت لها قصة سائغة أو قصيدة شائقة ، ولكنها فوجئت بهذه الكتب المتجمعة فصاحت على غير رو ية منها ؟ ياسلام ! كتب ، كتب ، كتب ، كل هذا كتب. شىء يدوّخ ! ومالت برأسها كأنها تهرب من دوار ينذرها بإغماء

ألا ترى يا صاحبي أن هذه الفتاة قد عرفت الكتب فلم تعرفها جلوداً وأوراقاً وألواناً تشوق العيون ، ولكنها عرفتها كما هى فى

الحقيقة زحمة من الأفكار والمعارف تشفق منها على رأسها الصغير ؟

لقد عجبت يومئذ من هذه الوهلة لأننى أعلم على التحقيق أن الفتاة شاهدت المكتبات فى المدرسة وشاهدتها فى السوق. فسألتها: أهذه أول مكتبة رأيتها فى حياتك ؟

تعجبت هى أيضاً معى من هـذه الوهلة ، ولم تزد على أن تقول : رأيت غيرها كثيراً ولكنى لا أدرى لماذا « دخت » وأنا أنظر إليها هنا . . .

ثم راجعت نفسى فى تفسير ذلك فلم أعجب من وهلة الفتاة كما عجبت من صدق حاستها ، أو من مبادرة هذه الحاسة إلى التفرقة بين الأشياء المتشابهة حين يتفرق بها المكان

فإنما تختلف الأشياء عندنا بما يقترن بها من تداعى الخواطر وما توحيه من اللوازم والملابسات . فالكتب فى السوق بضاعة للبيع ، والكتب فى المدرسة موزعة بين أيدى الأساتذة والطلاب ، ولعلهم مئات ولعلهم ألوف ، فلا توحى إلى الخاطر تلك «الزحمة» التى ترهق الرؤس . أما الكتب فى حجرة واحدة فى بيت رجل

واحد فللفتاة العذر إذا أجفلت منها تلك الجفلة وخافت منها على رأسها الدوار

إننا نمر بالمائدة فى الفندق العام فلا نستغرب بها وأن امتلأت بطعام جيش ، ولكننا إذا رأينا هذه المائدة بعينها أمام ضيف واحد خطرت لنا التخمة أو خطر لنا الغثيان ، ولنا المعذرة فى هذه التفرقة بين المائدتين !

* * *

واحتجنا يوماً إلى نقل بعض الرفوف من هذه الحجرة إلى الحجرة التى تليها ريثما نصلحها ونفرغ من طلائها . فاستعنا بقريب لبواب المنزل يومئذ على النقل مع خدم البيت ، وكان ريفياً أمياً يزور قريبه أو يزور «آل البيت» على التعبير الصحيح . أو لعلها أول زياراته للقاهرة فى طلب الخدمة وطلب البركة على السواء . . . ولم يكن له علم بالأحرف العربية ولا بالأحرف الأفرنجية ، فإذا رأى كتابا فى هذه الأحرف أو فى تلك فكله كتاب ، وكله مما يقرأه المطهرون

فلما اقترب من باب المكتبة خلع نعليه وتهيب أن يمد يده إلى الكتب لأنه كما قال لم يكن على ضوء !

أليس لهذا الريفى الأمى منطق صادق فيما فعل على البداهة؟ إنه تعود أن يقرن صورة الرجل العالم بصورة رجل الدين ، فما باله لا يقرن كتاب العلم بالقداسة الدينية . وهل يكون الكتاب لغير علم أو لغير قداسة ؟ !

لقد أكبرت تحية الجهل للعلم فى مسلك هذا الريفى الصالح ، وأستغفر الله لأننى أفسدت سمعة الكتب فى رأيه على الكره منى ،فأعلمته أنها كأبناء آدم وحواء فيها الصالح والطالح وفيها الطيب والخبيث ، وأنها لا تحرم فى جميع الأحوال على اللمس بغير وضوء ، فلم أجرئه على حرمتها ولا أقنعته بلمسها حتى أريته على غلاف بعضها صور التماثيل العارية ، وفى صفحات بعضها صور السادة والسيدات . فتحلل من حرج وأقدم بعد إحجام

ولا إخال هذه « الهيبة » للكتاب بعيدة جداً من هيبة « المكتوب » عند القبائل الفطرية كما أنبأنا عنها رواد المجاهل الإفريقية . فإنهم لا يفهمون هنالك كيف يقرأ الرجل الورقة ويفهمها ويعمل بما فيها دون أن يكون فيها روح مرصد أو طائف من الجان . وقد روى بعض الرحالين أنه أرسل خادمه الأسود إلى زوجته على مسيرة ساعات ليطلب بعض الأمتعة والأدوات

من بيته ، فكتب له ورقة وأمره أن يأتيه بجوابها . فحمل الورقة مطمئناً ولم يلق إليها كبير اكتراث ، ولكنه لما رأى السيدة تقرأها وتراجعها كلما أسلمته أداة من الأدوات المطلوبة فيها خامره الشك وأيقن أنها تستوحى بمراجعة الورقة روحاً تفقه عنها ما تسأل عنه فى صمت ووقار . فلما أسلمته السيدة تلك الأدوات تقبَّلها وحملها ولم يوجس منها ، ولكنه تردد وأوجس حين أسلمته الورقة بالجواب ! وحملها كمن يحمل ثعباناً يخاف أذاه أو شيطاناً يخاف سخطه وغضبه ، وأدى الأمانة بتمامها لأنه فى حراسة رقيب ينقل عنه ما يظهره ويخفيه

قال صاحبى : ويح الأسود المسكين لو انطلق عليه روح من وراء كل كلمة مخزونة فى هـذه الرفوف ! . . إن عفاريت الآجام جميعها لتصبحن عنده من ملائكة الرحمة بالقياس إلى هذه العفاريت ، وأن سحرة أفريقية على بكرة أبيها لا ينقذونه من وبال هذا السحر المخيف !

قلت أو لم يحصل ؟ بلى قد حصل وفرغنا من محصوله !! وقد انهزم السحرة المساكين فى وجه هذه الأرواح ، وهربت عفاريت الآجام من سطوة هـذه العفاريت . وهل المعركة بين القارة

السوداء وبين الواغلين عليها إلا المعركة بين الكتاب وتعويذة السحر القديم ؟

والتفت صاحبي إلى الرفوف يتصفح عناوينها ويسألني : أو لا يزعجك بعض الأحيان أن تخلع على الكتب هذه الصورة ، وأن تراها حاضرة الأرواح جياشة الحركة بحياة مؤلفيها ؟

قلت : بل أنا لا أراها إلا على هذه الصورة كلما أعرضت عن صورتها الممثلة فى الجلود والأوراق : أرواح فى انتظار الطلسم ، أو مردة فى قماقم سليمان . وأين برج بابل من لهجات رف واحد هاهنا لو تحركت له ألسنة وتفتحت له أفواه ؟ وأين الجحيم كلها لو انبعثت المردة من أرصادها وتمردت على الطلسم الأعظم الذى يحبسها فى قماقمها ؟

قال صاحبي : خير للكتب وأولى . . . نعم خير للكتب ألف مرة أن تكون أرصاداً للأرواح أو قماقم للمردة من أن تكون على تلك الصورة التى يصورها لنا أصحاب المائدة وصحاف الطعام ! . . ولست أدرى لِم يحضرنى خاطر الطعام المخزون فى العلب كلما تحدثوا عن الكتب وما فيها من طعام العقول ؟ فما القول فى رأس فيلسوف مجفف لساعة الحاجة إليه ؟ وما القول

فى هذه الأغذية المحنطة على الرفوف لطول البقاء واجتناب الفساد . ؟ هى ولا ريب أفضل ما اخترع الإنسان من صناعات الخزن والتجفيف وأحسن ما استودع من وسائل الصيانة والتعقيم . ليت الثمرات كلها تصان وتظفر بالتعقيم والتجفيف على هذا المنوال . ولكننا لا نشتهى طعام العقول للعقول حين نعرض لها الرؤوس المجففة والثمرات المحنطة ليوم القراءة أو ليوم التغذية المشتهاة . . . لا لا . إننا لا نود أن نشتهى الكتب هكذا لنأ كلها برؤوسنا وأدمغتنا ، و إنما نؤثرها مردة فى قماقم وأرواحاً فى أرصاد . فعلى بركة الله فلنمض معها فى سياحتنا إلى حيث تلتقى بنا فى آماد المكان والزمان ، ولنطلقها فرادى إن عز علينا أن نطلقها أسراباً وجماعات . . . على بركة الله !

قلت : نطلق ماذا يرحمك الله ؟ و إلى أين المنتهى إذا ابتدأنا معها واحداً واحداً أو سرباً سرباً إلى حيث تستطيع المسير ؟ . . . هذا يا صاحبى مارد يحملنا إلى قطب الشمال و بجانبه مارد مثله يحملنا إلى قطب الجنوب ! وهاهنا مارد ثالث يتعدى بنا أقطاب الأرض إلى الشعرى اليمانية وما وراء السديم . . . فمع أيها نسير ومتى المعاد إن سرنا مع هذا أو ذاك ؟ و إنك لتعلم أنها قديرة

على السفر فى رحاب الزمان قدرتها على السفر فى رحاب المكان. فهذا يحملك إلى القرن الأول للهجرة وهذا يحملك إلى القرن الأول للميلاد ، وغير هذا وذاك يحملك إلى ما قبل الهجرة والميلاد من أزمنة يضل فيها التاريخ وقلما يهتدى فيها الخيال ، وخطوة من هنا تلاقيك بهوميروس وخطوة من هناك تلاقيك بامرىء القيس ، وخطوة أخرى تجمعك بآدم وأبنائه الأولين . فأين المنتهى بعد هذا ومتى القرار؟ . . . لا يا صاحبى يرحمك الله . . . لا نهاية لانطلاق هذه المردة فى مداها فرادى ولا مجتمعات . فدعها فى قماقمها وانظر إليها ومعك أرصادها . فليس هذا أوانها وليست سياحتنا هذه بالسياحة السرمدية التى لا نرقب نهايتها . فعلينا بالأفق الذى نحن فيه نلزمه ولا نتعداه ، وحذار أن تفتح القماقم مجتمعات ولا متفرقات ، ولك عندها بعد ذلك ما تشاء

فالتفت صاحبى إلى القماقم يتصفح عناوينها ، ونظر هنا ونظر هناك على غير اطراد كأنه يرتجح ولا يملك الانبعاث فى طريقه دون أن يرجع إلى حيث كان . ثم هتف بى سائلاً : ما هذه المفارقات؟ بل ما هذه المقارنات ؟ شعر وتاريخ وفن ودين وسير وطبائع حشرات تصاحبها طبائع عظماء ، وخليط من المطالب لا تعرف لها

وحدة ولا يطرّد لها نظام . فهل هى مكتبة قارىء واحد أو هى مكتبات شتى أعددتها لمن يشاء ؟

قلت : بل هى مكتبة واحدة أعددتها لقارىء واحد ، ولا أحسب أن مكتبة القارىء الواحد تتفق على غير هذا النظام ، لأنك تُعد الكتب فى مطلب واحد لمئات القراء الذين يشتغلون به ويرجعون إلى مصادره ، ولكنك لا تحصر القارىء فى مكتبة واحدة إلا إذا نوعتها له وأغنيته بها عن غيرها . ولا بد للقارىء الواحد على الأقل من مطلبين مختلفين : أحدهما للصناعة والعمل ، والآخر للمتعة والتسلية ، فإن كانت صناعته الكتابة فقد تعدد ما يقرأ للعمل والصناعة وتعدد ما يقرأ للمتعة والتسلية . وكثيراً ما يكون التعدد مع ذلك فى العناوين لا فى بواعث القراءة . فإن القارىء قد ينظر فى خمسة موضوعات أو ستة أو سبعة لباعث واحد ونزعة واحدة ، وليس أقرب من بواعث القراءة فى بعض الأحايين ، مع تباعد الموضوعات والعناوين

خذ لذلك مثلاً هذين الموضوعين الغريبين : طبائع الحشرات وما وراء الطبيعة ؟ أيبتعد عنوانان قط أبعد من هذا الابتعاد ؟ أيفترق شيئان فى ظاهر الأمر كما يفترق البحث فى الكون

والسماء والخلود والبحث في جحور النمال ومباءة الجراثيم ؟ ومع هذا يتقاربان جد الاقتراب حين يهديك كلاهما إلى بداية الحياة أو نهاية الحياة ، وربما فسرت لك طبائع الحشرات « تصميم » بناء الحياة تفسيراً تعجز عنه عقول الفلاسفة والحكماء ، وربما عرفت من دوافعها وجواذبها وأنت ترقب الحشرة الضئيلة في أطوارها المتعاقبة ما لست تعرفه من مقاييس المنطق وتقديرات البديهة ، ودراسة المذاهب والتأويلات

وخذ مثلاً آخر هذين الموضوعين الغريبين : الشعر والدين ! . . إنهما ليبدوان في الغرابة كما يبدو لك منظر الناسك في الصومعة وإلى جانبه منظر الشاعر في مجال الأنس والسرور ، ولكنهما يلتقيان أقرب لقاء حين يعبّر الشاعر عن نفسه ويريك جمال الخالق في خلقه ، وحين يبرزُ لك الإنسانُ من وراء مسوح الزهاد فإذا هو شاعر مستتر أو شاعر موثق بسلاسل العبادة ، وإذا العبادة لا تخرج به من نطاق الشعور ، ولا تنكر له فتنة الحياة بل تمثلها له قوية مخيفة يتقيها بالمجانبة فيشعر بها كما يشعر بها من يواقعها ولا يتقيها . وإذا الفراش الذي يقع في النار والفراش الذي يهرب من النار . . . كلاهما فراش !

ولقد سألت نفسى عن البواعث المتوافقة وراء هذه النقائض المفترقة فأجابتنى عنها جواباً أرتضيه ولعلك ترتضيه ، ولخصته لى فى كلمات معدودة : وهى « الاستزادة من الحياة »

ولك أن تستزيد من الحياة بتعميقها أو بتوسيعها أو بتفسيرها ، ولك أن تتوسل إلى ذلك كله بقصيدة من عيون الشعر أو بنظرة فى عجائب حشرة ضئيلة تخالها من أسرار الصناعة المكتومة بل من « مسودات » الخلق الأولى . . . أو باستقصاء آماد الحياة فيما وراء الغيب وفيما بعد الموت وقبل الميلاد ، أو بالمقابلة بين سير العظماء على ضروب شتى من العظمة و بين سير الصغراء على ضروب شتى من الصغار . . . فكل أولئك باعث واحد مختلف العناوين ، وكله صحاف تعطيك ألواناً شتى من الطعم والمذاق ولكنها لا تعطيك فى النهاية غير دم واحد ينبض فى العروق . . . ومعذرة بعدُ من هذه اللفتة إلى الطعام وأنت لا تحب ذكر الطعام فى هذا المقام

* * *

قال : لا عليك من المعذرة بعد هذه الفترة . فقد أوشكت الساعة أن أستطيب التشبيه الذى كنت أعافه منذ برهة ،

وأوشكت مع هذا أن أؤمن بأن الثبات على الرأى فى البلاغة غير الثبات على الرأى فى الأخلاق . فقديماً قيل لنا إن الثبات فضيلة . وأخشى أن أكون اليوم قد أخللت بهذه الفضيلة ... لولا باب من الرحمة فى هذا الخلاف بين شرعة البلاغة وشرعة الأخلاق . وليست هى مسألة فكرة تقاس بالرأى بل هى شيء أحسه الساعة ولا أبالى أن أفكر فيه . فما أرتضيه من البلاغة وأنا شبعان مكظوظ لا أرتضيه منها وأنا جائع أتلمس الطعام ، وأنت لا تشهّى الكتب إلىّ حين تشبهها بالمائدة وأنا من الكظة أعاف المائدة وأحاديثها ، ولكنك تشهيها إلىّ حين تصفها بهذه الصفة وأنا متفتح المعدة والرأس لكل غذاء .

قلت : هو ما قالوه قديماً وأصابوا فيه أكثر مما أرادوا . فالبلاغة هى « مراعاة مقتضى الحال » . . ولقد كنت بليغاً فى إشارتك هذه . . . فلك عندى من المكافأة عليها مائدة غير مائدة أفلاطون وأشباه مائدة أفلاطون !

وعدنا نستطيب القماقم والارصاد بعد هنيهة، ولكن على أن نتركها بسلام فلا نطلقها فرادى ولا جماعات ، وحسبنا منها العناوين والرفوف .

ثم راح يجول ببصره جولة الطائر فيما يعبره وهو يقول : ما أصغر نصيب القصص من هذه الرفوف !

قلت : نعم . وإنه لو نقص بعد هذا لما أحسست نقصه . لأننى — ولا أكتمك الحق — لا أقرأ قصة حيث يسعنى أن أقرأ كتاباً أو ديوان شعر، ولست أحسبها من خيرة ثمار العقول .

قال : كيف ؟ أليس فى الرواة والقصاصين عبقريون نابهون كالعبقرين النابهين فى الشعر وسائر فنون الآداب ؟

قلت : بلى . ولكن الثمار العبقرية طبقات على كل حال ، وقد يكون الراوية أخصب قريحة وأنفذ بديهة من الشاعر أو الناثر البليغ ، ولكن الرواية تظل بعد هذا فى مرتبة دون مرتبة الشعر ودون مرتبة النقد أو البيان المنثور . والمثل هنا أقرب إلى الإيضاح من سوق القضية بغير تمثيل : إن الحديقة التى تنبت التفاح لا يلزم أن تكون فى خصبها ووفرة ثمراتها أوفى من الحديقة التى تنبت الجميز أو الكراث . ولكن الجميز والكراث لا يفضلان التفاح وإن نبتا فى أرض أخصب من الأرض التى تنبته وتزكيه

ونحن نقرأ القصص التى تجود بها قرائح العباقرة من أمثال ديكنز وتولستوى ودستيفسكى و بورجيه و بروست و بيراندلو

فنؤمن بتلك العبقريات التى لا تجارى فى هذا المضمار ، ولكن إيماننا بها لا يلزمنا أن نضع القصة فى الذروة العليا من أبواب الأداب ، ولا يمنعنا أن نقدم عليها غيرها فى التقدير والتمييز

قال : وما المقياس الذى نرتب به هذه الرتب يا ترى ؟

قلت : لعله مقاييس شتى لا مقياس واحد ، ولعل الناس يختلفون فيها كاختلافهم فى كل شىء يرجع إلى المشرب والتعبير. غير أننى أعتمد فى ترتيب الآداب على مقياسين يغنيانى عن مقاييس أخرى ، وهما الأداة بالقياس إلى المحصول ، ثم الطبقة التى يشيع بينها كل فن من الفنون

فكلما قلت الأداة وزاد المحصول ارتفعت طبقة الفن والأدب ، وكلما زادت الأداة وقل المحصول مال إلى النزول والإسفاف .

وما أكثر الأداة وأقل المحصول فى القصص والروايات ؟ إن خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذى يعطيكه بيت كهذا البيت :

وتلفتت عينى فمذ بعدت   عنى الطلول تلفت القلب

أو هذا البيت :

كأن فؤادى فى مخالب طائر   إذا ذكرت ليلى يشد به قبضا

أو هذا البيت :

ليس يُدرى أصنع أنس لجن ... سكنوه أم صنع جن لأنس

أو هذا البيت :

أعيي الهوى كل ذى عقل فلست ترى ... إلا صحيحا له حالات مجنون

أو هذا البيت :

وقد تعوضت عن كل بمشبهه ... فما وجدت لأيام الصبا عوضا

لأن الأداة هنا موجزة سريعة والمحصول مسهب باق ، ولكنك لا تصل فى القصة إلى مثل هذا المحصول إلا بعد مرحلة طويلة فى التمهيد والتشعيب . وكأنها الخرنوب الذى قال التركى عنه — فيما زعم الرواة — إنه قنطار خشب ودرهم حلاوة !

أما مقياس الطبقة التى يشيع بينها الفن فهو أقرب من هذا المقياس إلى إحكام الترتيب والتمييز . ولا خلاف فى منزلة الطبقة التى تروج بينها القصة دون غيرها من فنون الأدب ، سواء نظرنا إلى منزلة الفكر أو منزلة الذوق أو منزلة السن أو منزلة الأخلاق . فليس أشيع من ذوق القصة ولا أندر من ذوق الشعر والطرائف البليغة ، وليس أسهل من تحصيل ذوق القصة ولا أصعب من تحصيل الذوق الشعرى الرفيع حتى بين النخبة من المتقفين .

قال صاحبي : على أنهم قد أثاروا فى أوائل هذا القرن ضجة حول القصة بالغوا فيها أيما مبالغة وخيلوا إلى الناس أن فنون الأدب كلها عالة عليها ، وأنه لا كتابة لمن ليست له قصة .

قلت : لقد فعلوها حقاً ، وكان ذلك على أثر ضجة أخرى هى ضجة الكلام الكثير فى الدراسات النفسية و « السيكولوجية » بأنواعها ، فبدا لبعضهم أن القصة هى المعرض الوحيد لتطبيق هذه الدراسات فى الكتابة الأدبية ، وإنها هى الوسيلة القريبة لفهم العلاقات بين النفوس البشرية وتفسير المواقف والمشكلات التى تنجم عن غرائب الطباع . ولم تخل ضجة القصة من أسباب قوية غير «السيكولوجية» وكثرة الكلام فيها،فإن شيوع القراءة بين الدهماء قد أشاع معها القصة التى تفهمها الدهماء وتؤثرها على غيرها من الفنون الأدبية ، وجاء شيوع الصور المتحركة بعد شيوع القراءة فأملى للدهماء فى هذه النزعة أو هذه « الهواية » حتى غلبت عليهم وسرت منهم إلى النقاد الذين يتبعون الجماهير ويسمون نزواتها بروح العصر وهى نزوات بغير روح ! . . وجاء بعد شيوع القراءة وشيوع الصور المتحركة شيوعٌ آخر هو شيوع الدعوة الشيوعية بين طائفة من طلاب الهدم والانقلاب . فعند

هؤلاء أن القصة أشرف أبواب الأدب لأنها تكتب للجهلاء وتصلح لبث الدعاية الشيوعية . . . وعندهم أنها لا ينبغى أن تدار على موضوع غير موضوع القضايا الاجتماعية . كأنهم يضربون الجهل على الفقير ضربة لازب أو كأنما هذا الفقير لا يكفيه الضنك الذى يضنيه فى ساعات العمل أو فى طلاب العيش ، فلا يزال فى ضنكه حين يفتح الكتاب وحين يقرأ الصحيفة وحين يحلم وحين يناجى ضميره وحين يحب أن يعرف له من خصائص الانسانية شيئا غير المعدة والزاد

قال صاحبى : هان ذلك كله لو أنهم دبروا الزاد للفقير

قلت : كلا يا صاح . لا هان ذلك ولا جعله الله يهون على الفقراء ولا على الأغنياء ، فليس من البر بالفقير أن يسلب الكرامة الإنسانية أو يسلب الحرية الفردية كأنها حلية يزدان بها الغنى وحده ولا يحفل بها الفقير ، وليس بالصحيح على كل فرض من الفروض وكل ظن من الظنون أن الشيوعية تدبر الزاد للفقير بفضل ما تقوم عليه من الأسس وما تشتمل عليه من الآراء . فكل مذهب يدعو إليه الدعاة الاجتماعيون يستطيع أن يدبر الزاد للعاملين فى سنوات معدودات إذا صرف النظر عن الغايات

البعيدة وأنحصر همه فيما بين يديه . لقد دبرته النازية حين حصرت همها فى صنع السلاح و إدارت المصانع على العدد الحربية والمطالب العسكرية ، وقد دبرته الفاشية فى إيطاليا على قلة مواردها حين حصرت همها فى هذا المطلب العاجل وهذه السياسة الو بيلة ، فلم يبق فى إيطاليا ولا فى المانيا عامل بغير عمل موقوت ولم تبق فيها مشكلة للمتعطلين ، وكان ثرائرة الاجتماع ينظرون إلى ذلك فينعونه على الديمقراطية و يؤكدون به ما يعيبونه عليها من بطء الوسائل وتردد العزائم وطول المطال، ولكن الديمقراطية أيضاً قد سبقت النازية والفاشية معاً فى المضمار فخلقت الأعمال لعشرات الملايين فى بلادها وغير بلادها حين أدارت مصانعها على الذخيرة والسلاح ، وظهر أنها حيلة لا تعيي أحداً يقبلها على علاتها و يأخذها بتبعاتها ، وما تبعاتها إلا الخراب والفساد وغشيان الأرض كلها بطائف من الفزع والحسرة تهون معه مشكلة البطالة وكل مشكلة مثلها من مشكلات الاجتماع ، ويخطىء كل الخطأ من يحسب وعود الشيوعية فى هذا المطلب بشارة جديدة من داع جديد . فليس أقدم من هذه البشارة ولا أسبق من هذا الداعى فى تاريخ الدعايات

وشك صاحبي غير قليل ثم تمتم سائلاً كأنه يسأل نفسه :

أو ليست هي بشارة «علمية» كما يقول كارل ماركس وأتباعه حين يميزون بين دعوات الإصلاح التي يسمونها بالدعوات العاطفية والخلقية و بين دعوتهم « الجديدة » التي يسمونها بالدعوة العلمية ؟ إنهم يزعمون أنهم قدروا عواقبها وقاسوا مراحلها كما يفعل الفلكي حين يرصد مدار السيارات و يحسب مواعيد الشروق والغروب وساعات الكسوف والخسوف !

قلت : هذه هي الخرافة التي لاينبغي أن نصدقها أيها الرفيق . فليس أقدم في هذا العالم الإنساني من الدعوة إلى انصاف الضعفاء ، ولا من الوعد بأمنية النعيم المقيم ولا من إثارة النفوس على الشيطان الرجيم ولا من تثبيت العقائد بالحماسة والكفاح ... وهذه الدعوة التي يزعمونها « علمية » هي تبشير لا يعوزه شبح الشيطان ولا الفردوس ولا العقيدة العمياء ، وغاية الفرق بينها و بين سابقاتها أن الشيطان هنا هو « الرأسمالية » التي ترجع إليها جميع الخبائث والشرور ، وأن الفردوس هو العصر الموعود الذى يسود فيه الصعاليك ، وأن حماسة العقيدة هنا هي حماسة المعدات والأحقاد. وليس أكذب ممن يزعم أنه يخاطب العقل وهو يخاطب المعدة

ويخاطب الحسد والحفيظة ، فلا إقناع هنا ولا إقناع فى غير هذا من ضروب الحماسة والبغضاء ، وليس الإقناع بالمعدة بعد الإقناع بالروح تقدماً نغبط عليه .

إن صاحبهم كارل ماركس ليزعم أنه يتنبأ عن مصير الأحياء الإنسانية وهو لم يحى فى زمانه قط حياة إنسان ، ولم يشعر قط إلا بشعور الجداول والأرقام حيثما كان يجمعها فى المتحف البريطانى صباح مساء، ولهذا حسب أن الآدميين آلات تقاس حركاتها بالأرقام كما تقاس حركات السكك الحديدية والسيارات ، فلا يزال أصحاب الأموال يزدادون ثروة ولا يزال العمال يزدادون جوعاً حتى يصبح العامل وما فى يديه غير القيود وما فى جوفه غير الجوع ... فيثور ويجازف بالحياة لأن الموت أحب إليه من هذه الحال . ولكن ما القول إذا كان العامل إنساناً حياً ولم يكن آلة جامدة تدار بالحساب ؟ ما القول إذا كان هذا العامل يحس بالظلم قبل أن يبلغ مداه ويحس بالقدرة على دفع الظلم قبل أن يقتله الجوع ؟ ما القول إذا كان العمال فى الأمم الصناعية يزدادون أجراً ولا ينقصون منذ مائة عام ، وكان فى البلاد الأمريكية اليوم عمال يطلبون العلاوة فى اليوم الواحد ثلاثة ريالات ؟ . . القول إذن

أن النبوءات عن مصير اللحم والدم تحتاج إلى عامل آخر غير عامل الحساب ، وتسبقنا إلى نتيجة أخرى غير نتيجة الجمع والطرح والقسمة على القرطاس ، وهذا الذى قد حدث فانقطعت بحدوثه تلك السلسلة «العلمية» التى وصل صاحبنا كارل ماركس حلقاتها فتراجع من أجر قليل إلى أجر أقل منه إلى حرمان ملازم إلى جوع كافر لا يعبأ بشىء ولا يدفعه إلى الحركة غير اليأس والقنوط !

وهذه الحركة التى قيل إنها لا تأتى من غير اليأس والقنوط من ذا الذى يقول إنها حكمة العقل وأنها مفتاح النعيم المقيم وإنها خير ما تهتدى إليه الإنسانية وتتجه إليه العقول ؟

هب يا صاحبي أن النتيجة المزعومة — وهى الثورة الشيوعية — هى المصير المحتوم الذى يهدينا إليه الحساب العلمى الصحيح ، فمن ذا الذى يقول إنه إذن هو المصير السعيد الذى نسعى إليه ؟ ألا يجوز أن أعرف خط القطار وأن أحسب حركاته فإذا هى تنتهى إلى هاوية ليس لها قرار ؟ أ إذا جمعت المسافة وقسمتها على السرعة وأرضيت « التقدير العلمى » بهذا فانتهى بنا إلى تلك الهاوية كان حتماً لزاماً علىّ أن أسوق القطار إليها وأن استعجل دواليبه للنزول بها قبل فوات هذه الفرصة الغراء ؟

فقال صاحبي : أليست الثورة الروسية بعد الحرب العالمية الماضية كانت عن كل حال نبوءة من هذه النبوءات « العلمية »

فبادرته قائلاً : بل حماك الله وحمانا أن نغتر بهذه اللجاجة التي أوضع فيها بعض الفارغين ممن لا يعقلون ما يقولون . فما كانت تلك الثورة الروسية إلا ثورة كسائر الثورات التي سبقتها منذ آلاف السنين! ظلم يثور عليه مظلومون وتمالئهم قوة عسكرية فينتصرون على الظالمين . كذلك ثار الناس منذ عرفت الثورة في التاريخ . فإن كان للنبوءات الماركسية فضل بعد هذا في ثورة الروس فذلك هو الفضل المعكوس، لأن المؤمنين بها حاولوا تطبيقها كما آمنوا بها فضيعوا عشرين سنة في هذه التجارب المخيبة وضاعت معها ملايين الأرواح التي فنيت بالسلاح أو فنيت بالقحط والوباء ، ثم آل بهم الأمر إلى إقرار ما أنكروه وحاربوه وقتلوا الملايين من أجله ، وهو اقتناء الملك وإيداع المال في المصارف وتوريث الأبناء وإباحة الفروق في المعاش وإعلان العصبية الوطنية ، ولو لم يؤمنوا ذلك الإيمان بالنبوءات الماركسية لبلغوا هذا المطلب في سنة واحدة وعافوا أنفسهم وعافوا الناس معهم من شرور تلك «التجارب» وخطوب تلك المحاولات

قال صاحبي : وأنت على مقتك هذا للماركسية لا إخالك تبرئ نظام رأس المال كما نراه من عيوب وآثام يمقتها كل من يحب الخير لبني الإنسان

قلت : إن الماركسيين لا يستطيعون أن يمقتوا تلك العيوب كما أمقتها ، لأنهم يؤمنون بالمادة ولا يؤمنون بغيرها ، ومن آمن بالمادة هذا الايمان لم يستطع أن يلوم عشاقها كل اللوم أو يعذرهم فى عشقها بعض المعذرة . غير أننى بعد هذا كله أقول إن جشع المستغلين شر ولكن الشيوعية ليست بخير ، وإن رأس المال محنة للأخلاق ولكن الشيوعية محو للأخلاق لا تقوم لها فيه قائمة . وسيأتى يوم يزدرى فيه الناس المستغلين فى المجتمع الإنسانى كما كانوا يزدرون قطاع الطريق بعد أن كانوا فى بعض الأزمان عنوان الشرف ومناط الحمد والثناء ، فإذا بلغوا تلك المرتبة كان بلوغهم إياها نمواً ورشداً يستحقان كل ثمن تفرضه عليهم سنة الارتقاء ، ولم يكن ضرورة من ضرورات العجز والحرمان . أما الشيوعية فما سبيلها إلى إبطال السرقة وإبطال القسوة فى تجميع المال ؟ إن بلغت ما تريده وصح لها ماتزعم وامتنعت السرقة فى ظلها على ماترجوه فإنما تمتنع لأن النـاس

لاينتفعون بالمال إذا سرقوه ، فلا يملكون به أرضاً ولا يودعونه فى مصرف ولا يتركونه بعدهم لوريث ، فهم يكفون عن سرقته لأنهم عاجزون عن الانتفاع به لا لأنهم عفوا عن الظلم أو تنزهت ضمائرهم عن العدوان أو ارتقوا قليلاً أو كثيراً فى سلم المروءة والأخلاق ، وتلك فضيلة المسجون أو فضيلة المضطر إلى العفاف ، وليست هى بخير من محنة الأخلاق التى تمحصها التجارب ويتعفف عنها الناس وهم قادرون

قال صاحبى : وهل يرتقى الناس يوماً هذا المرتقى ؟ وهل يرتفعون إليه فى مئات السنين بل فى ألوف السنين ؟

قلت : إننا لم نستكثر على طبيعة الحياة أن تنقل الكلب من وحش لئيم يفترس الأطفال والغنم إلى حارس أمين يفتدى الأطفال والغنم بحياته ، فلماذا تستكثر عليها أن تنقل الإنسان من حال إلى حال وقد نقلته كما رأينا وعلمنا بين شتى الأحوال؟.. أما طول العلاج يا صاحبى فهو خير من علاج سريع يتبعه موت سريع ... أنسيت علاج العاطلين فى مستشفى الأطباء المشعوذين؟ أنسيت علاج النازيين والفاشيين المتبطلين ؟ أعطوهم القوت أياما ليسلبوهم ويسلبوا من يعولونهم الحرية ثم يسلبوهم جميعاً أنفاس

الحياة . . . . وقد كان الجوع حيناً بعد حين خيراً من الموت والفزع والاستعباد . ومهما يكن من الشك فى طب النفوس فأحق الأطباء بالشك فى طبهم أولئك الذين ينشئون مذهبهم من اليأس وقلة الحيلة و يعلمون فضائلهم باليأس وقلة الحيلة ، و يحسبون أن الشر قد زال لأنه محبوس وراء الأقفاص والسدود

وكانت فى صاحبى على ما يظهر عادة كثير من الناس بل عادة أكثر الناس ، وهى أنهم يكرهون المرض الذى جربوه ولا يكرهون المرض الذى لم يجربوه حتى يجربوه ! ... فيسمعون ذم الدمل الذى يقض مضاجعهم ويعرضون عن ذم السرطان وهو بعيد منهم . فقد كان يوازن بين مساوئ الجشع والاستغلال ومساوئ الشيوعية والحكم المطلق كما يوازن بين الوقائع والفروض... وليس السرطان الذى لم يصب به الإنسان فرضاً من الفروض !

قال : ألا يجوز أن تكون عيوب الشيوعية عيوب المجال الضيق والحوض المحدود ؟ ألا يمكن أن تنصلح فيها هذه العيوب إذا عمت أجزاء العالم وشملت جميع أوطانه وشعوبه ؟

قلت : بل إخال يا صاحبى أن الشيوعية فى وطن واحد أو بضعة أوطان شئ يجوز فى الحسبان . أما الشئ الذى لا يجوز

فى حسبانى فهو الشيوعية عامة شاملة بلا أوطان وبلا حدود . إذ ما العمل فى تنظيم خطوط المواصلات بين أنحاء العالم ؟ وما العمل فى تنظيم صادراته ووارداته؟ وما العمل فى تنظيم الزراعة والصناعة بين أقطاره ؟ وأى حكومة هى تلك الحكومة العالمية التى تحمل وطناً من الأوطان على أن يزرع أو يصنع لوطن غيره وهى قد أبطلت من النفوس حوافز المصلحة الشخصية وحوافز المصلحة الوطنية على السواء ؟ وإن بقيت الحكومات المتعددة فى أنحاء العالم فعلى أى أساس من الأسس تقوم الحدود والفوارق بين الأوطان ؟ وعلى أى أساس من الأسس يقوم توزيع المصالح وتقسيم الأعمال؟ فربما كانت الشيوعية فى الوطن الواحد حقيقة ممكنة بما فيها من العيوب والآفات ، ولكنها فى العالم بأسره هى ولا ريب أسطورة الأساطير .

ولو انتظمت للعالم حكومة واحدة تسوس أعماله وتقرر منها المفيد وغير المفيد لكان هذا هو البلاء فوق كل بلاء . لأن هذه الحكومة قد تشل دوافع الحياة فى النفوس وهي تزعم أنها تقتلع منها الحماقة والغرور . ولو أننا رجعنا إلى تواريخ بنى الإنسان لننزع منها آثار الحماقة والغرور كلها لانتزعنا نصف الحضارة

الإنسانية وذهب النصف الآخر بذهابه كما يذهب البيت كله إذا انهار نصف الجدران !

ما الولع ببناء القصور وفى الكوخ سعة لساكنيه ؟ انه حماقة وغرور

ولكن أين كان يذهب العلم بالهندسة والعلم بمسالك البحار والأرضين والبصر بطبائع القبائل والشعوب لولا طواف الناس فى طلب الحجارة والأخشاب لبناء تلك القصور ؟

ما الولع بالثناء يكذب فيه الشاعر كما كذب شاعرنا حين قال :

لو تعقل الشجر التى لاقيتها مدت محيية إليك الأغصنا ؟

إنه حماقة وغرور !

ولكن أين يذهب الأدب والشعر وبليغ الكلام وبديع القرائح لولا هذه الحماقة وهذا الغرور فى ذلك الممدوح ؟ ومتى كان للأدب فى تلك الأزمنة عائل غير هؤلاء الحمقى والمغرورين من أشباه ذلك الممدوح ؟

ما التوابل والأفاويه التى كانت تشق من أجلها البحار وتقتحم من أجلها مخاطر الأسفار ؟

إنها حماقة وغرور !

وفى سبيل هذه الحماقة والغرور كشفت القارة الأمريكية واتصلت جوانب الكرة الأرضية ، وخرج كولمبس بسفينته لينتهى إلى الهند من غياهب بحر الظلمات . . . فلم يكن هذا الخاطر كله إلا حماقة وغروراً تنبعث من حماقة وغرور .

ومع هذا يهون على بنى الإنسان أن يعصف الزمن بكل ما كان فى عصر كولمبس من الرشد ليبقى لهم ضلال هذه الحماقة وذلك الغرور

اذكر هذا يا صاحبى واذكر ما كان يلقاه كولمبس لو أنه مثل فى « مكتب شيوعى » ليستأذن فى السفر بمن معه من النواتية والعمال ؟ أكان بعيداً أن يدور بين كولمبس ورئيس المكتب المسؤول حوار كهذا الحوار ، وأن يكون مصيره بعد ذلك إلى لهب النار أو جوف البحار ؟

— إلى أين تذهب يا هذا ؟

— إلى الهند من طريق المغرب !

— وهل ترجو الوصول حقاً من هذا الطريق ؟

— لى فى ذلك عظيم الرجاء !

— وهبك فى حل من أن تغرر بنفسك فهل يحل لك أن

تغرر بهؤلاء النواتية المساكين وهؤلاء الأجراء المرهقين ؟ فى أى سبيل يحل لك كل هذا التغرير ؟

— فى سبيل الحرائر والأبازير التى انقطع ورودها من طريق المشرق وعز انقطاعها على الموسرين والأغنياء ! . . .

لو نجا كولمبس من هذا الحوار بكلمة « مرفوض » دون غيرها لعددناه من السعداء . وكيف كان ينجو بها دون غيرها وهو ذلك الشيطان الرجيم الذى يغرر بحياة النواتية والأجراء ليستطيب الحمقى والمغرورون لبس الحرير وأكل الأبازير ؟ . . !

حذار يا صاحبى أن تسلم دوافع الحياة إلى مسيطر عادل أو جائر ، وأن تقيدها بحكمة حكيم أو شهوة شهوان . إنك على أمن حين تمنع الجريمة والعدوان وتسلم زمامهما إلى القانون ، ولكنك ترى كيف تكون العاقبة حين نسلّم ما نسميه بحماقة الحمقى إلى ما نسميه بحكمة الحكماء أو صلاح العلماء ، فكيف تكون الحال لو سيطر الغباء على الذكاء ، أو تصرف الضلال بالرشاد ؟

***

وأخذ صاحبى يقلب فى كتب الشيوعية والشيوعيين، فتوقف بعد قليل ، وسألنى مستغرباً : ما هذا ؟ خطب هتلر إلى جانب

رسائل لنين ، وكتاب عن تاريخ الشيوعية يجاور كتاباً عن العنصر المختار من الآريين ؟ ألا تتوخى ترتيباً لهذه الكتب أو هذه الرفوف ؟

قلت : بلى . . . ترتيب ولا ترتيب . فأما الترتيب المفصل فلم أقصده ولم أشعر بالحاجة إليه ، وأما الترتيب المجمل فالذى تراه مثال لما أتوخاه .

دع هذه الرفوف مثلاً وانظر إلى هذه الرفوف التى تليك ؛ مؤلف صينى حديث معه مؤلف انجليزى قديم ، وشاعر من بنى اليونان يصحبه ناقد من أبناء العالم الحديث ، والجامعة بينهم كلهم أنهم شعراء ، أو ينقدون الشعر ، أو يتكلمون عن الشعراء .

ودع هذه الرفوف وانظر ناحية منها إلى الرف الذى يليه : لعله أعجب وأبعد فى المقاربة — أو فى المباعدة — بين الجيران والخلطاء . فهذا سفر عن بيتهوفن ، تجاوره موسوعة عن الموسيقى ، وينزل معهما سجل عن الطير ومجلد تفتحه فلا تقرأ فيه كله صفحات مطبوعات وإنما تسمع من بعض صفحاته أصوات الأحياء فى المواسم المختلفة وفى حالات الغضب والرضى والنفرة والحنين ، لأنها صفحات من قوالب الحاكى لا من سطور الكتاب

والشعراء ، وعلى مقربة منها جميعاً عالم يتكلم عن الرياضة والطبيعة والأوزان ، وكلها من عالم واحد هو عالم الأصوات والأنساق والألحان ، وما أنا بقادر على ترتيب لها يهدينى إليها أقرب ولا أوفق من هذا الترتيب

أما الجوار بين الشيوعية والنازية فياله من جوار . . . هو جوار لو انتقل إلى عالم المحسوس لانبعثت من هذه الرفوف القليلة فرقعة لا تسمعها من ألف طربيد ولا من ألف غيمة تومض بالبروق والرعود ، ولكنها لو انتقلت إلى عالم المعنى لكان الجوار بينها أقرب جوار وأوفق جوار

قال صاحبي كالمستنكر : أجوار الشيوعيين والنازيين أقرب جوار وأوفق جوار

قلت نعم . لأن الفارق بين المذاهب الاجتماعية أو المذاهب السياسية ـ إن شئت أن تسميها بالسياسية ـ هو فارق واحد يهديك بينها جميعاً ولو بلغت المئات والألوف : هو الفارق فى الحرية الفردية ، أو هو الفارق فى التبعة التى يحملها الفرد فى علاقته بأمته و بعالم الإنسان على اتساعه . فاحسبها مائة مذهب أو ألف مذهب أو ما فوق هذا أو ما دون ذلك ، فإنما هى فى النهاية

مذهبان اثنان : مذهب يقدس الحرية الفردية ومذهب يستخف بها تقديساً لسلطان الدولة أو سيادة الزعيم ، ولا عبرة باختلاف الأسماء والعناوين .

وإن شئت أن تعلم لأيهما الرجحان ولأيهما الغلب على طول الزمان فالموازين التى توزن بها هذه المذاهب لا تحصى ، وليس بينها ما هو أصدق من ميزان التاريخ وميزان الأخلاق

قال : وما ميزان التاريخ أو ميزان الأخلاق فى هذه القضية؟

قلت : إن التاريخ لم يستقم قط فى اتجاه واحد كما استقام فى اتجاه الحرية الفردية أو فى اتجاه النهوض بالتبعة ، وكذلك الأخلاق . فمنذ آمن الإنسان بروحه وعلم أنه مثاب على عمله لم يكن له تقدم قط إلا فى هذا الاتجاه ، ولم تقم على غير هذا الطريق قائمة من الأديان والأخلاق والحركات الاجتماعية فى كل زمان وبين كل قبيل . فما تفاضل عصران ولا امتاز شعبان ولا فردان ولا خلقان ألا استطعت أن تحكم بينهما بميزان التبعة أو الحرية الفردية . ولن يكون الراجح منهما ألا أوفر الطرفين نصيباً من تلك التبعة أو من تلك الحرية : من أفضل الفريقين الطفل أو الرجل ؟ العبد أو السيد ؟ الجاهل أو العالم ؟ المجنون أو العاقل ؟

الهمجى أو المتحضر؟ الغالب أو المغلوب ؟ الحيوان أو الإنسان ؟ لا اختلاف فى جواب هذه الأسئلة جمعاء ، ولا اختلاف كذلك فى أن الحرية أو التبعة تكونان حيث يكون الراجح المفضل من الفريقين

قال صاحبى : إنه لميزان عادل . . . ولكنه يزن بين النازية والشيوعية من جهة و بين غيرهما من المذاهب الاجتماعية من جهة أخرى . فكيف يكون وزنه بين النازية والشيوعية يا ترى ؟

قلت يا صاحبى : كلا هما شر وفى الشر خيار . و إنما المقابلة بينهما تعلو بهذه مرة وتهبط بتلك مرة ، كما يكون العلو والهبوط فى المقابلة بين الحسد والغرور

فالنازية فى لبابها قائمة على خليقة الغرور ، لأنها لن تقوم إن لم يقم معها غرور الزعيم بتفوقه على سائر الناس ، وغرور العنصر بتفوقه على سائر العناصر ، وغرور الأتباع بما يتاح لهم من مظاهر الزهو والخيلاء

والشيوعية فى لبابها قائمة على خليقة الحسد ، لأنك لا ترى شيوعياً إلا رأيته حاسداً للممتازين من خلق الله كيفما كان سبيل الامتياز ، وليس منهم من يشعر بالعطف على الضعيف أو الفقير

ولكنهم جميعاً يحقدون على القوى والغنى وعلى كل صاحب فضل يشيد به الآخرون ، وليست التفرقة عندهم بين الناس تفرقة بين من يحمد أو يذم ولا تفرقة بين من يحب أو يكره ، ولا تفرقة بين من يكرم أو يلؤم . . . وإنما هى على الجملة تفرقه بين من يحسد أو لا يحسد كائناً ما كان مثار الحسد عليه . وأنك لتستطيع أن تعلم مع من من الخصمين يكون الشيوعى كلما علمت من منهما الراجح ومن منهما المرجوح : فهم فى صف المرأة إذا نازعت الرجل ، وفى صف الولد إذا نازع الوالد ، وفى صف الجاهل إذا نازع العالم ، وفى صف الخامل إذا نازع المشهور ، وفى صف الدهماء إذا نازعوا أبطال التاريخ ، ولن ترى شيوعياً يسلم من الحسد بحال من الأحوال ، وبهذا وحده تفسر كل لغز يعرض لك من ألغازهم حين ترى فيهم من تظنه غريباً عنهم ، وفيهم أصحاب الأموال والأحساب

قال : والله لقد وددت حقاً أن أعرف لم يكون صاحبنا فلان من الشيوعيين وهو سليل بيت قديم وصاحب مال موفور ؟

قلت تعرف ذلك حين تعرف أنه يحسد أمثاله وينقم على الدنيا لأنه لا يحسب منهم حين يحسب ذوو الكلمة أو ذوو الرأى

أو ذوو المنصب والجاه ، وعلى قدر طمعه فى ذلك وتوافر وسائله عنده يكون حقده وحسده واشتياقه إلى التقويض والتخريب

وقس على ذلك إخوانه ممن تستغرب نخوتهم الشيوعية وهم موسرون أو مرابون يمتصون دماء الضعفاء قبل الأقوياء : أرأيت إلى المرابى فلان وثروته كلها مجموعة ممن يقترض الجنيه والجنيهين ويؤدى الفائدة ضعفين أو فوق الضعفين ؟ استمع إليه — أتسمعه يوماً يذكر إنساناً من الأقدمين أو المحدثين بحمد أو ثناء ؟ فماله لا يكون شيوعياً والشيوعية تمكنه من شتم « أكبر عدد مستطاع » من خلق الله ؟ يشتم الرسل لأن الشيوعية تنكر الأديان ، ويشتم الأبطال لأن الشيوعية تنكر الأوطان ، ويشتم دعاة الحرية لأنهم « برجوازيون » يخدمون رؤس الأموال من وراء الستار ، ويشتم حتى « غاندى » المسكين لأنه يخدر أعصاب المساكين ويعلمهم ترك العدوان ولا قيام للشيوعية بغير الثورة وسفك الدماء . . . . ثروة من الشتائم يستمتع بها لسانه فى ظل المذهب « المظلوم » ، وثروة من الأحقاد تخيل إليه أنه يمتص دماء الضعفاء لأنهم لا يستحقون الرحمة ، وليس لما فيه من لؤم وكنود

قال صاحبي : أو كلهم ذلك الرجل ؟ أو ليس فيهم من رجل رشيد !

قلت : إلا من عصم ربك . وهم القليل ، أو هم الاستثناء فى هذه القاعدة ، والأغلب أن يكون هؤلاء من الشبان الذين تنبض قلوبهم بحماسة الفتوة وحب النخوة ، و يسمعون وعود الماركسيين فيصدقونها ولا يدركون عقباها أو يفطنون إلى محظوراتها . فمن لم يكن من هؤلاء فهم السيئون المتعجلون ، لأنهم يتعجلون الصعود و يعجزون عنه فيودون لو يهبط الصاعدون ، و يحبون إلغاء الفروق بين النـاس ليصبح الأعلياء كالأدنياء ، لا ليصبح الأدنياء كالأعلياء

قال لى العالم الحكيم الدكتور يعقوب صروف منشئ « المقتطف » مرة إنه شهد الصبية يلعبون كرة اليد فرأى منهم من يعدو ليلقف الكرة ومن يعدو ليجذب الأول من قفاه و يرده إلى الوراء ، فلا هو يلقف الكرة ولا يطيب له أن يلقفها غيره ! . . وهاتان الطائفتان من الخلق موجودتان فى كل ميدان من ميادين الجد ولا تقصران على هذا الميدان الصغير من ميادين اللعب ، فإن رأيت فتى فى مقتبل عمره يهوى الشيوعية غير

مخدوع فى وعودها فهو بعض هؤلاء الذين لا يلقفون الكرة ولا يسرهم أن يلقفها السابقون

وأود يا صاحبي أن نعطى هذه البواعث النفسية حقها فى تفسير إقبال الناس على المذاهب أو إعراضهم عنها . لأن تفسيرهما بدرجات الفهم أو بأحوال المعيشة لن يغنينا عن تفسيرهما بتلك البواعث النفسية فى وجهتها الكبرى ، ويزعم الماركسيون أن الأحوال الاقتصادية هى كل شىء فى تفسير حركات التاريخ ومذاهب الدعاة ، ولكنهم لا يذكرون حركة واحدة من تلك الحركات المعروفة إلا كان الأمر فيها موقوفاً على مسألة شعور قبل كل شىء وبعد كل شىء

وخذ لذلك مثلا هجرة الناس إلى القارة الأمريكية بعد كشفها فراراً من الفاقة أو من الحجر على ضمائر المعتقدين . فلماذا هاجر أناس وبقى أناس لو لم يكن فرق الشعور هو الفرق الأكبر بين الباقين وبين المهاجرين ؟ ولماذا رضيت طائفة بالذل والحجر فسكنت واستكانت ، ولم ترض طائفة أخرى فودعت الديار واقتحمت مجاهل البحار ومخاطر الأسفار ؟ وما تعليل « المادة » لهذا الفارق فى الشعور والمهاجرون ينتمون إلى كل طبقة وحالة

الضيق شاملة لهؤلاء وهؤلاء ؟ إن آفة هذا المذهب البغيض أنه لا يرى أكرم العلتين للحادث الواحد إلا حاد عنها إلى أحقر العلتين ، و إنه لو وضع لعالم من الحيوان لما احتاج إلى تضييق ولا تقصير ولا إعادة تفصيل أو تحرير . لأنه لم يفهم من الإنسان إلا جانب الحيوان

وكان صاحبي من أولئك الذين يعلقون أحكامهم على الخطأ حتى يتبين لهم وجه الصواب فيه ، وكأنه لا يعرف أن هذا الوجه دميم إلا إذا عرف أن ذلك الوجه وسيم ، ولا يصدق أن هذا العلاج قاتل إلا إذا صدق أن ذلك الدواء محقق الشفاء . فشك طويلا بعد ما سمع من مساوىء الشيوعية والنازية ثم عاد يسأل : ولكن ما العمل ؟ إن شيئاً لابد أن يعمل ، ولا أحسبك إلا قد خرجت من هذا التيه المتراكب بزاوية تنفذ إلى طريق ، ولو لم يفض بنا الطريق إلى الغاية المأمولة إلا بعد حين . فالشيوعية حسد والنازية غرور ، فأين يكون سواء الأخلاق وصلاح الأمور؟

قلت : وهبنا لم نعرف طريق الصلاح ، أفيمنعنا هذا أن نحذر طريق الفساد ؟ على أننى أعتقد يا صاحبي أن الطريق الوحيد الذى فتح لنا بين هذه المتاهات هو طريق كتبت عليه كلمة

واحدة لا تتبدل فى مشكلة من المشكلات : وهى كلمة «التعاون!».

فلا خلاص للعالم بعد اليوم إلا بهذا الترياق الوحيد حيثما أعضلت عليه مشكلة فى السياسة أو فى المعيشه أو فى الحكومة أو فى الأخلاق

التعاون بين الأمم كبارها وصغارها ، والتعاون بين الطبقات غنيها وفقيرها ، والتعاون بين السلطات ، والتعاون بين الأفراد ولا اختيار للناس فى تعاطى هذا « الترياق » لأنهم مدفوعون إليه مقسورون عليه ، بعد نزاع بين الأمم ، ونزاع بين الطبقات ، ونزاع بين الحكام والمحكومين

قال : وماذا يجدى التعاون فى مشكلات الفقر والغنى ؟

قلت : يجدى ما ليس يجديه حل آخر من الحلول التى جرت قبل الآن أو ستجرى بعد الآن

خذوا الضرائب من الأثرياء وزيدوا الأجور للعاملين ، فإذا بكم قد حققتم غرض الشيوعية ولم تمسخوا الطبيعة الإنسانية ، لأن المالك الذى يؤخذ منه معظم ربحه ضريبةً للدولة إنما هو موظف فى ملكها لا يتقاضى من الربح أكبر من أجر الوكيل المؤتمن على مصلحة غيره ، وكأنما ملكت الدولة مرافق البلاد

كلها ولم تحرم المالكين ذلك الحافز «الفردى» الذى يحث المرء على العمل لغيره كأنه يعمل لنفسه ولأبنائه ، وما من شىء يستنهض الهمم للتجويد والافتنان كما تستنهضها هذه الحوافز التى تخلو الحياة من كل طعم إذا خلت منها

وانشروا سنة التعاون فى التجارة وتدبير أسباب المعيشة فإذا بكم قد أعدتم على الشارى فوائد الرخص والغلاء ، ووقفتم الاستغلال عند حده الذى يرضاه المنتفعون بالبيع والشراء

ولا أزعم لك أن هذا « التعاون» سيبطل كل شكاية ويوفر كل مطالب وينصف كل محروم ، فإن نظاماً من النظم لن يكفل هذا «الفردوس» لبنى الإنسان أبد الأبيد وآخر الزمان ، ولو أنه كفله لكان وبالاً عليهم ، لأن الأمان من كل قلق مدعاة للتواكل والقنوع ، ولأن الناس ما عملوا قط إلا وفى جوانحهم بعض الخوف وبعض النزوع إلى التغيير ، وهب أن بعض القلق لا يفيد هذه الفائدة فى حياة الأفراد والجماعات فهل يكون القلق اليسير ثمناً كبيراً لحرية الفرد وإطلاق المجال لسباق الهمم والآمال؟ ففى السجون يأمن السجناء على المأكل والمسكن والكساء والدواء ولكنهم شر من الطلقاء الذين يشبعون ويجوعون ، ويلبسون

و يعرون ، و يدبرون لأنفسهم أمر المسكن والصحة إذا احتاجوا إليها

قال صاحبي : وهل يقبل المستغلون من ذوى الجشع وطلاب التخمة سنة التعاون !

قلت : إن سنة التعاون لا تنتظم فى هذه الدنيا لأن المستغلين يقبلونها أو لا يقبلونها ، ولكنها تنتظم على مقدار الحاجة إليها والإيمان بها وغلبة المصالح التى توافقها على المصالح التى تناقضها وتقف فى طريقها

وربما تهيأت في وطن ولم تتهيأ فى غيره ؛ وربما أسرعت هنا وأبطأت هناك ، وربما تعرضت دونها الصعوبات حيناً ولم تتعرض فى حين آخر . . . على أنها إذا انتظمت بعد ذلك فإنما تنتظم للدوام والتمكن والهداية كما تنتظم فضائل الرشد بعد فضائل القصور ، أو أدب الرجولة الناضجة بعد أدب الطفولة الفجة . وإنك لتمنع الطفل أن يمرض وتحميه أن يؤذى نفسه بيديه ، ولكنه لا يمتنع عن المرض باختياره ولا يحتمى من الأذى بنفسه إلا بعد خبرة عسيرة وتجربة طويلة ، من يحرمه منها يحرمه صفوة وجوده وقوام كيانه ولا يقال إنه رءوف به عامل لخيره متعجل

لنموه ورشاده . ولو أن الثورة الشيوعية قضت عشرين سنة فى
طلب التعاون والإيمان بلزومه لبلغته ونهجت به منهجاً يتقدم
العمل فيه ، ولكان ذلك خيراً من تلك السنين العشرين التى
قضتها فى المحاولة و إهدار الجهود والدماء ، ثم ختمت المطاف
بالعدول عنها و إقرار ما كانت تنكره وتأباه ! وعلى أى شىء
ختمت المطاف ؟ على إقرار الملكية والاعتراف بالدين والوطنية
والسماح بالميراث وخزن الأموال وتفاوت الأجر والمعيشة ، وسلب
العامل حريته فى الانتقال من مصنع إلى مصنع ، وتحريم
الاحتجاج والإضراب عليه . وقد كان يحتج و يضرب فى عهد
القيصرية الجائرة . فأما اليوم فلا احتجاج ولا إضراب، ولا غنى
له عن بطاقة الخروج من المصنع إذا ضاق به وتحول عنه ، فإن لم
تكن بيده هذه البطاقة فلا حق فى بطاقة السكن ولا بطاقة الطعام
ولا بطاقة الحقوق المدنية فى شىء — أو حضور جلسات . !
وهو حر كما يقال . . . ومن أجل حريته هذه فاضت دماء
وتقوضت مدن وضاعت أيام وأعوام !

و إننى لأوكد لك اننى لو ملكت الفصل قولا وعملا فى قضية
المذاهب الاجتماعية لأوجزت الحكم وحسمت الخلاف من أوجز

طريق : ألف عامل فى بلاد الشيوعية وألف عامل فى بلاد الديمقراطية الصناعية يتبادلون المكان خمسة أعوام ، وليس يخامرنى الشك طرفة عين أيهما يسرع إلى الصريخ والعويل ويلحف بعد قليل فى طلب التبديل والتحويل

قال صاحبى وهو يتلفت كأنما يتعوذ من شيطان يسمع مايقول: ويح هذه القماقم الهوجاء . لقد شغلتنا وهى مغلولة مسجّاة ، فكيف لو انطلقت من عقالها ؟

قلت : وحسناً صنعت . فما أعلم أن موضوعاً فى هذا العصر هو أولى بأن يشغلنا فى موضوعها ، وما أحسب أن الإنسانية قد احتاجت إلى التفرقة بينها وبين البهيمية منذ فارقت الغابة والكهف للمرة الأولى كما احتاجت إليها فى هذه الآونة .

***

ونظرت إلى صاحبى فإذا هو يضم ما بين الخنصر والبنصر ويقول : هانحن أولاء نقلب صفحة جديدة أو نفتح كتاباً جديداً .. وهانحن أولاء نتكلم بالقول الصريح وبالقول المستعار فى وقت واحد . فما أبعد النقلة ما بين الخنصر والبنصر فى عالم الكتب : ما أبعد النقلة بين الأرض والسماء ، وبين المعاش والمعاد

و بين فلسفة كارل ماركس وفلسفة ما وراء الطبيعة !

قلت : كلاهما يتصدى لعمل واحد وهو تفسير الكون وترتيب المعاش فى هذه الدنيا على هذا التفسير

وكان صاحبي قد انتقل كما قال ، فيما بين الخنصر والبنصر إلى عالم السماء : عالم البحث فى الله ، وسر الوجود ، وأصل الحياة وما قبل الحياة وما بعد الحياة

وكان على ديدن الكثيرين يرى أن هذا البحث فيما وراء الطبيعة من الوقت الضائع أو فضول القول . فسألنى وهو يتحرج قليلاً لأنه يعلم أننى لا أستضيع وقتاً أنفقه فى بحث هذه الأمور :

ما فائدة هذا كله وهو غموض فى غموض وفروض من وراء فروض ؟ ألا يمكن أن يعيش الإنسان على هذه الأرض وهو فى غنى عن هذه الفلسفة التى يسمونها سر الوجود ؟

وأردت ألا أتخلف عنه فى جرأة الرأى فقلت : بل هى آخر شىء يستغنى عنه الإنسان . وما أنت مستطيع أن تطل من هذه النافذة أو تبدأ عملك فى الصباح ما لم تكن لك « فلسفة وجود » على نحو من الإنحاء

قل لى : ماذا تستبيح وماذا تحرم وأنت تنظر من هذه

النافذة ؟ أتستبيح أن تملأ عينيك من شيء غيرك كما قال الأديب الحجازى ؟ و إذا استبحته فلماذا تستبيحه ؟ و إذا حرمته فلماذا تحرمه ؟ وما حدود المتاع بالنظر فيما تراه ؟ أله حدود أم ليست له حدود ؟

وأنت تذهب إلى عملك كل يوم فى الصباح فلماذا تعمل أو لماذا تهمل عملك ؟ أعليك واجب ؟ أمناط هذا الواجب مصلحتك أم مصلحة الأمة ؟ ومشيئة الخالق أم مشيئة المخلوق ؟ و إن آمنت بهذه المشيئة أو بتلك فلماذا آمنت؟ و إن لم تؤمن بهذه أو بتلك فلماذا كفرت ؟ و إن لم تفكر فى شيء من ذلك فهل أنت إذن مثل حسن للآخرين !

مرحلة الحياة يا صاحبى كجميع المراحل التى نقطعها من مكان إلى مكان . لا تركب القطار حتى تحصل على التذكرة ولا تحصل على التذكرة حتى تعرف الغاية التى تسير إليها . غاية ما هنالك من فرق بين راكبين أن أحدهما يقرأ التذكرة والثانى لا يقرأها ، أو إن أحدهما يؤدى ثمنها من ماله والثانى يؤدى له الثمن من مال غيره . و إن أبيت المجازات فأحد الراكبين فى مرحلة الحياة يبحث عن غايتها بنفسه والآخر توصف له غايتها بلسان غيره . . . لا بد

يا صاحبي من هذه الفلسفة التي تريد ان تلقى بها في اليم وانت على الشاطئ . وثق يا صاحبي أنها آخر شيء يلقيه راكب السفينة حين تلعب به الأعاصير في البحار اللجيّة . بل هي الشيء الذي لا يتركه ولو ترك السفينة أو تركته إلى الأعماق . ألم تسمع قولهم في الأمثال : « إنهم كالنواتية لا يذكرون الله إلاّ ساعة الغرق ؟ » . . . . فاعلم يا صاحبي أن هذا الذكر هو فلسفة الحياة التي تبقى مع راكب السفينة بعد كل بضاعة يستغنى عنها ، و بعد السفينة نفسها إذا حان حينها !

قال صاحبي : وهل وصلت قط من فلسفة حياتك إلى شيء ؟

قلت : نعم . إن الله موجود

قال : باسم الفلسفة تتكلم أو باسم الدين ؟

قلت : باسم الفلسفة أتكلم الآن . والفلسفة تعلمنا أن العدم معدوم فالموجود موجود . موجود بلا أول ولا آخر ، لأنك لا تستطيع أن تقول : كان العدم قبله أو يكون العدم بعده ! وموجود بلا نقص لأن النقص يعترى الوجود من جانب عدم ولا عدم هناك .... موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص ولا قصور . . . والوجود الكامل الأمثل هو الله .

قال : وكيف توفق بين الوجود الأمثل و بين الشرور والآلام في هذه الحياة ؟

قلت : هذا سؤال غير يسير ، لأننا نحن الفانين لن نرى إلا جانباً واحداً من الصورة الخالدة فى فترة واحدة من الزمان . ومن يدرينا أن هذا السواد الذى يصادفنا هنا وهناك هو جزء لازم للصورة كلزوم النقوش الزاهية والخطوط البيضاء ؟ . . . . وماذا تستطيع أن تصنع لو ملكت الأمر وتأتى لك أن تقذف بالشرور من الحياة ؟ بغير الألم والخسارة ما الفرق بين الشجاع والجبان و بين الصبور والجزوع ؟ و بغير الشر والسوء ما الفرق بين الهدى والضلالة و بين النبل والنذالة ؟ و بغير الموت كيف تتفاضل النفوس وكيف تتعاقب الأجيال ؟ و بغير المخالفة بينك و بين عناصر الطبيعة من حولك كيف يكون لك وجود مستقل عنها منفصل عن موافقاتها ومخالفاتها ؟ و بغير الثمن كيف تغلو النفائس والأعلاق ؟

قال صاحبي : أليس عجزاً أن نشقى وفى الوسع ألا نشقى ! أليس عيباً أن نقصر عن الكمال وفى الوسع أن نبلغ الكمال ؟

قلت : وكيف يكون فى الوسع أن يكمل المتعددون ؟ إنما

يكون الكمال للواحد الدائم الذى لا يزول

قال صاحبى : قل ما شئت ، فليس الألم مما يطاق ، وليس الألم من دلائل الرحمة وآيات الخلود الرحيم

قلت : على معنى واحد إن هذا لصحيح !

إنه لصحيح إذا كانت حياة الفرد هى نهاية النهايات وهى المقياس كل المقياس لما كان وما يكون . لكن إذا كانت حياة الفرد عرضا من الأعراض فى طويل الأزمان والآباد — فما قولك فى بكاء الأطفال ؟ إن الأطفال أول من يضحك لبكائهم حين يعبرون الطفولة ، وإنهم أول من يمزح فى أمر ذلك الشقاء ، وليس أسعد الرجال أقلهم بكاء فى بواكير الأيام

يا صاحبى : هذا كون عظيم . هذا كل ما نعرف من العظم ، وبالبصر أو بالبصيرة نظرنا حولنا لا نعرف العظم إلا من هذا الكون . ماذا وراء الكون العظيم مما نقيسه به أو نقيسه عليه ؟ فإن لم نسعد به فالعيب فى السعادة التى ننشدها ، ولك أن تجزم بهذا قبل أن تجزم بأن العيب عيب الكون وعيب تدبيره وتصريفه وما يبديه وما يخفيه . ولك أن تنكر منه مالا نعرف ، ولكن ليس لك أن تزعم أنه منكر لأنه مجهول لديك .

و بسط صاحبى ذراعية وهو ينظر حوله بالبصر و بالبصيرة معا فى أجواز الفضاء السرمد ، ويخيل إلى من يراه فى تلك الساعة أنه يفتح بصيرته وسعها كما يفتح المشدوه عينيه وسع الأجفان ، حين يحب أن يملأ العينين مما تريان . وكأنه أغمض بعد إعياء من التأمل والاستقصاء فقال : هذه آفاق شاسعة ! هذه أغوار لا يسبر لها قرار . وتساءل : أليس إلى معرفة الحقيقة من طريق غير هذه الطريق ؟ أليس للرياضة الروحانية مسلك إلى هذه الآفاق والأغوار ؟ إن نساك الهند على ما يبدو لى لأخبر بهذه المسالك وأهدى فى هذه الدروب ! إنهم لا يصدعون رؤسهم بالبحوث والفروض ولكنهم يعرفون !

قلت : بل أحسب أن الطريقين مختلفان . إن نساك الهند لا يطلبون المعرفة ولا يجعلونها غاية الغايات ، فإن المعرفة قد تنال من إقرار الجسد كما تناله من إنكاره ، وقد تنجم من الإقبال على الدنيا كما تنجم من الإعراض عنها ، ولكنهم طلبوا الطمأنينة والراحة أو طلبوا الرضوان ، وشتان بين من يطلب الرضوان ومن يطلب المعرفة حيثما وصل إليها أو وصلت إليه

قال : أى رضوان وأى راحة ؟ إنهم ليعذبون أبدانهم

ويقدعون نفوسهم ويشلون أعضاءهم بمشيئتهم . فكيف ينشدون الرضوان والراحة بهذا العذاب ؟

قلت : هل يعذبون أبدانهم إلا لأنهم راضون بهذا العذاب ومطمئنون إلى عقباه ؟ وهل يشاء الانسان أمراً لا يشاءه أو يختار أمراً لا يختاره أو يرضى بأمر لا يرضاه ؟

لعمرى لئن لم يفتح النساك فتحاً عظيماً فى جانب المعرفة لقد فتحوا أعظم الفتوح فى جانب الأخلاق . بل أقاموا الأخلاق على أوثق أساس حين علّموا الإنسان أن رضوان النفس مطلب يهون فى سبيله كل عذاب ، وأنه لا جزاء أوفى من رضوانها ولا عذاب أنكأ لها من سلب ذلك الرضوان ، وأى فهم لمعنى الثواب والعقاب أكمل وأفضل من هذا الفهم الذى لم يأت من جانب البحوث والفروض ؟ لا عذاب للنفس أنكأ لها من شعورها بالنقص ولا نعيم لها أنعم من شعورها بالرضوان . فكفى بهذا الفتح انتصاراً فى معترك الأخلاق ، وإن لم ننسك كما ينسكون ولم نتعذب كما يتعذبون

قال صاحبى : الحق أننى لم أشق فى حياتى بشقاء أمرّ وأوجع من اتهامى لنفسى وسوء الظن بطويتى . ولو لم يكن هذا الشقاء

امرّ الشقاء على الطبيعة البشرية لما تحصنت منه بحصن الغرور ، وهو أعم الخلائق فى البشر أجمعين

قلت : والغرور هو الجوهر الزائف الذى نتحلى به كلما أعوزنا الجوهر الصحيح، وإنه على هذا لحصن مطروق لا يستعصم كل الاستعصام من ذلك الرقيب الحسيب. فربما اغتر الإنسان فكبرت قيمته عنده ولم يقنع بما دونها فآلمه النقص وفاتته نعمة الرضوان .

ولقد قال اليونان قديماً اعرف نفسك ، فاذا قلنا معهم : نعم وارض عن نفسك أيضاً بلغنا كمال العلم وكمال الأخلاق . ترى هل يطلب الناس أجراً لأنهم يلبسون حلل الحرير ولا يلبسون الكرابيس ؟ ترى هل يأكل الناس الطعام المرىء اللذيذ و يصدفون عن الطعام المسقم الخسيس لأنهم يخشون العذاب ؟ فاذا عرفوا الكمال وعرفوا النقص فهل تراهم يطلبون أجراً لأنهم تجنبوا النقص وتعلقوا بالكمال ؟ وإذا عرفوا صحة النفس فهل تراهم يلتمسون الأجر على الصحة كما يلتمس الأطفال أجرهم على تناول الدواء ؟ إنما الخوف من النقص هو أمرّ العذاب ، والرضوان عن الكمال هو أحسن الجزاء . وقد يتعذب الإنسان فى طلب الكمال وهو راض ، وقد يرفض النعمة فراراً من النقص وهو لا يخشى

العقاب . فارض عن نفسك وأنت فى غنى بعد هذا عن الوعد والوعيد فى نشدان الكمال ، لأنك لا تحتاج إلى الوعد والوعيد لتستطيب ما أنت شاعر بطيبه وتنفر مما تعاف

قال صاحبي: أكبر الظن أن «الذوق» هنا قد يغنى ما ليست تغنيه المعروفة أو تغنيه التقاليد والموروثات ، وهنا يستوى الفن الجميل فى مكانه إلى جانب المعرفة و إلى جانب الدين

وكان صاحبي يداعب على القرب رفًا أمامه يقرأعليه عناوين الكتب فى تماثيل اليونان ومدارس الفن القديم والحديث ، فما هو إلا أن طرأ اسم الفن الجميل على لسانه حتى تناول واحداً منها ثم تناول ثانياً وثالثاً ورابعاً وهو يقلب صفحاتها و يقابل بين صورها و يقرأ سطوراً هنا وسطوراً هناك فى التعقيب على تلك الصورة أو ذلك التمثال ، ولم يفته أن يدرك ما أدركته الأجيال بداهة وارتجالا من ذلك الفضل السابق على جميع الأفضال فى باب التماثيل : وهو فضل الأغريق الأقدمين . فراح يقول : صدق الذين أطنبوا فى شأن هؤلاء الأغريق ووصفوهم بأنهم تراجمة الطبيعة الصادقون فى كل باب ، ولا سيما باب التماثيل و باب التمثيل ، فما يبصر الإنسان تمثالا أغريقياً إلا اتصل بصره

بالطبيعة على بساطتها بغير حائل و بغير حجاب ، وما يقرأ قصة من قصصهم المسرحية إلا اتصل بصره بالطبيعة كما يعيش فيها الإنسان وتسيطر عليها العناصر والأقدار .

واختطف كلمة فى هذا الكتاب وكلمة فى ذاك عن فن مريون وفيدياس وليسبس ومن تلاهم من المتخلفين . فاذا الفن أيضاً مظهر لبروز الفرد الانسانى من الغمار الشامل إلى مكان التخصيص والتمييز ، فالتمثال القديم نموذج للشكل والقالب والقوام يتساوى فيه كل ذى خلق سوى من الناس، ولكنه شامل عام لا تتميز فيه الملامح والتعبيرات ولا يتمثل فيه التخصص والانفراد ، ثم تتعاقب صور الأفراد بروزاً وتبايناً حتى ينسى الناظر إليها النماذج الشاملة ويتناولها بالتقسيم والتفصيل ، ويظهر هذا فى تماثيل العصور الإغريقية لأنهم صدقوا وصف الطبيعة وصدقوا الشعور بها على السواء . . . وكأنهم حين يمثلون الأبطال الأقدمين يمثلون عناوين شتى لكل نموذج من نماذج البطولة يُصنع على غراره قالب باق وتتعدد منه أنماط متكررات .

ولم ينته صاحبى من تقليب تلك الصور إلا وهو يقول : فن جميل. نعم فن جميل . . . ولكن ما غناء الفنون الجميلة فى عصرنا

هذا عصر العلوم والصناعات ! وأية أمة فى عصرنا هذا تفرغ للفن كما فرغ له الأغريق وعليها ذلك الإلحاح الدائم من حاجتها إلى العلم وحاجتها إلى الصناعة ؟

وتذكرت فى تلك اللحظة سؤالاً سمعه الناس ولا يزالون يسمعونه منذ ظهرت بينهم الصناعة الحديثة والعلم الحديث . وقد سألته مرات وسئلته مرات، وأحببت فى هذا المقام أن أكون أنا السائل قبل أن أكون المسئول . فقلت لصاحبى : وأيهما أحق بالعناية والتقديم ؟ وأيهما أجدر بالأمم أن تفخر به وترعاه ؟

قال : وهل فى ذلك جدال؟ أحقها بالعناية والتقديم هو الذى نحتاج إليه ولا نستغنى عنه !

قلت : ولكن هذا المقياس يا صاحبى أخطأ مقياس للتفضيل بين شيئين يتعلقان بالإنسان ، لأن الذى لا نستغنى عنه دائماً هو الضرورات الحيوانية التى تقارب بيننا و بين من دوننا من الأحياء.. والذى نحسبه من الكماليات هو الكمال الذى تتفاضل به منازل الناس . فدع الحاجة ومقاييسها يا صاحبى فليست هى بمقياس صحيح ، وكيف يكون مقياساً للاختيار ما يسلبك الاختيار و ينزلك على حكم الضرورة والإكراه !

قال فماذا ترى أنت ؟

قلت : إذا لم يكن فى الأمر اضطرار فنحن إذن قادرون على أن نختار ، وعلينا إذن أن نختار بين أمة جاهلة ناقصة الأداة وأمة مريضة أو يوشك أن تموت

فالأمة بغير علم أمة جاهلة ولكنها قد تكون على جهلها وافية الخلق والشعور، والأمة بغير صناعة أمة تعوزها إداة العمل ولكنها على هذا قد تكون صحيحة الحس صحيحة التفكير ، والأمة بغير تعبير أمة مهزولة أو مشرفة على الموت ، وكذلك تكون الأمم التى خلت من الفنون ، لأن الفنون هى تعبير الأمم عن الحياة

ولا أكتمك يا صاح أن الاختيار بين هذه المقاصد الثلاثة خليق أن يعنت المختار . لأن الفن والعلم والصناعة ليست بديلا من بديل وليست قريناً يقاس إلى قرين . وما أعطى الإنسان التعبير ليبادل بينه و بين العلوم أو بينه و بين الصناعات . فإنما التعبير جزء من حياة الإنسان، والعلم حالة من حالاته ، والصناعة أداة من أدواته . . . ولا محل للمفاضلة بين جزء لا ينفصل من النفس الإنسانية وحالة من حالاتها التى قد تنفصل عنها ، ولا محل للمفاضلة بين هاتين و بين عصا يحملها المرء فى يده أو فأس يضرب

بها الأرض أو مطية يركبها أو شيء من هذه الأشياء المصنوعة على الإجمال . . . وما ظنك برجل يقول لك : تعال يا فلان ! إنك حي تعبر عن سرورك وألمك وتقول إني أحب و إني أبغض و إني أرجو و إني أخاف ، و إني أبتهج لتلك الروضة وأنقبض لتلك المتاهة وأعجب بهذا البطل الجسور وأهيم بذلك الوجه الصبوح .. تعال يا فلان ! إنك تستطيع أن تقول هذا فلا تقله وخذ في مكانه العلم أو خذ في مكانه عشر سيارات و بضع طيارات ومصنعاً للحديد ومنسجاً للحرير . . . ما قولك في هذا الرجل يا صاح ! هل تراه قد عرض عليك الخيار في أمر يصلح للخيار ؟ وهل تراك قادراً على أن تجيبه ولو طاب لك أن تأخذ البدل المعروض وتعطيه التعبير المزهود فيه ؟

ذلك هو شأن الذين يفاضلون بين الفنون والعلوم والصناعات : يخيرون الناس في غير موضع للخيار ويسألونهم عن الأسعار في غير موضع للبيع والشراء . أما إن كان المقصد من هذه التسعيرة تقويم القيم والعلم بأقدارها فليعلموا إذن ما شاءوا أن يعلموه : ليعلموا أن للأصبع قيمة ، وأن للمصباح قيمة ، وأن للسيف قيمة وأن للرغيف قيمة ، ولكن المبادلة بينها لا تقبل في سوق الاختيار..

وليس فى سوق البيوع الجبرية مجال للإيجاب والقبول !

ووقعت يد صاحبي على مجلدات الصور التى تسمى بصور المدارس الحديثة ، وهى أشكال وألوان من المستقبليين إلى فوق الواقعيين إلى الإحساسيين الغلاة ، إلى أشباه ذلك من البقع والخطوط والأصباغ التى تحمل عنوان التصوير وليست هى من التصوير فى شىء ، لأنها فى استطاعة كل من يتناول الريشة ويغمسها فى الألوان وليست بالفن الذى تعرف له أصول وتدرس له مبادىء ويمتاز به الفنان بين سائر الناس

نظر صاحبي إلى تلك الصور فاشتدت عليه النقلة من فنون الأقدمين ونظرائهم المحدثين إلى هذا الهراء الذى يشبه هذيان المجانين . فقال : إن كان الفن تصويراً فليس هذا بتصوير ، وإن كان هذا الفن الذى يسمونه بالحديث تصويراً فلنبحث عن اسم آخر لذلك الفن القديم ... لن يجمع الفنين اسم واحد بأية حال .

قلت : لا حاجة إلى البحث عن اسم آخر للفن القديم فهو هو التصوير الذى يصنعه المصورون . أما هذا فهو ألغاز وأحاجى كتلك الألغاز والأحاجى التى تنشر فى صحف التسلية عن الحروف المتقطعة والأرقام المثلثة أو المربعة أو عن العيون التى

ليست لها آناف والآناف التي ليست لها عيون ، وكلها من عمل الملغزين والمفسرين فلا اختصاص بها للمصورين والنحاتين دون غيرهم من العالمين

قال صاحبي : ونستغفر الألغاز والأحاجي قبل هذا التشبيه بين الفنين . فإن الألغاز والأحاجي ترجع إلى تفسير يتفق عليه كل من يفهمها بلا استثناء . أما هذه البقع والخطوط والأصباغ فهي شيء لا يفهمه غير صاحبه ولا يستطيع أن يعمم فهمها بين طائفة من الناس . فكل صورة هنا كلمة من لغة لا يعلمها إلا إنسان واحد ، إن صح أنها شيء معلوم . وقد كانت الفنون لغة إنسانية عامة يفهمها على البداهة من لا يتفاهمون باللغات ، فأصبحت عن أيدى هؤلاء المجان خرافة سرية فى ذهن رجل واحد لا يمثلها مرتين على نمط معروف .

ثم أومأ صاحبي إلى صحائف الإحساسيين فقال : هؤلاء هم الذين فتحوا الباب جزاهم الله !

قلت : أصبت . إنهم هم الذين فتحوا باب التصرف فى الأصول الموروثة ولكنهم أصابوا فى فتحه ، وهؤلاء دخلوا فيه ولكنهم دخلوا واغلين

لقد كان الأساتذة الأقدمون يصورون ما يعلمون ويحسبون ، فجاء من بعدهم أساتذة المدرسة «الاحساسية» ليصوروا ما يحسون وما يشهدون

كان الأستاذ القديم يعلم وهو يصور الشجرة أن لها غصونا وأوراقا فيصورها ذات غصون وأوراق مفروزة كما يعلمها ، وإن كان يراها من حيث يجلس لتصويرها لونا أخضر لا تنفصل ورقة فيه عن سائر الأوراق

وكان الأستاذ القديم يحسب الظل سواداً لأنه نقيض البياض وإن كان ليضرب أحياناً إلى لون البنفسج أو الرماد .

فجاء الإحساسيون فأصلحوا هذا وذاك وكان لهم الفضل والتوفيق فى هذا الابتداء

وكأنما حسب الذين خلفوهم أن التصرف مقصود لغير غرض مقصود . فوصلوا إلى ما هم فيه من هذيان المجانين .

كان الأقدمون يصورون ما يعلمون ويحسبون ، وكان الإحساسيون الصادقون يصورون ما يحسون ويشهدون ، فجاء من بعدهم من يصورون ما يتوهمون ، وجاء من بعد هؤلاء من يصورون ما يزعمون أنهم توهموه ، وهم كاذبون

توهم مزعوم . فماذا يكون وراء الوهم الملفق والزعم المكذوب؟
لن يكون إلا هذه البقع والخطوط والأصباغ ، ولن تكون فناً يتولاه فنان ، لأنها فى مقدور كل يد تصبغ الألوان

انظر إلى هذا الكلب الذى صوره رجل من المستقبليين ! أرأيت كلباً قط له اثنتا عشرة قدماً وذيلان أو ثلاثة ذيول ؟ إن هذا « المستقبلى » يصوره كذلك لأنه يزعم أن الكلب وهو يجرى قد يُرى له هذا العدد من الأقدام والذيول ! ! فمن الذى أنبأه أن فن التصوير قد خلق لتصوير الكلاب وهى واقفة لا تنقل قدماً إلى الأمام أو إلى الوراء ؟ لقد صور الأقدمون كلاب الصيد فى قصارى شوطها فلم يجهل أحد رآها أنها تعدو غاية العدو وأن الحركة شيء داخل فى صناعة المصورين . ولو جرى المصورون على هذا المذهب لما جاز أن يرسم انسان بعينين اثنتين . . . لأنه يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشمال ويرفعهما إلى أعلى ويصوبهما إلى أسفل فلا تستقران فى لحتين !

وانظر إلى هذا المنكودمن غلاة الواقعيين كيف يصور الفتاة ؟ أفهذه فتاة أم جثة غريقة وارمة ؟ أم جلد آدمى محشو كما تحشى جلود الحيوان ؟

ولكنه يقول لك إنه يصور ما يراه الوعى الباطن ولا يصور ما تراه العينان . فمن قال له إن الوعي الباطن مخلوق فى هذه السنوات التى سميناه فيها باسمه ؟ ومن قال له إن الأساتذة الأقدمين كانوا يعيشون فى هذه الدنيا بغير وعى باطن و بغير أوهام وأحلام ؟ . . . إنه سمع اسماً جديداً فظنه خلقاً جديداً يريناالدنيا على صورة لم تكن لها فى الزمن القديم . . . ثم جاء المتجرون بالغرائب فسخروه وشجعوه ، ووقع فى الفخ من يدعون غير ما يعلمون ، ومن يخافون أن يقال عنهم إنهم قوم متخلفون ، لا يفقهون الجديد ولا يجرون مع العصر الذين يعيشون فيه.

قال صاحبي : ترى لو تمثل صاحبنا فى وعيه الباطن صورة السيارة كأنها الفتاة الحسناء اللعوب — أيؤمن بوعيه الباطن هذا فيلقى بنفسه تحت قدميها ، أو يقف فى طريقها ليغازلها و يسعد بقربها ؟

قال صاحبي : ليتهم يصدقون الوعى الباطن هذا التصديق ، فيلحقوا بالوعى الباطن فى عالم الخفاء وتسلم القرائح والأذواق . . لكنهم عند الجد قوم عقلاء . ينظرون بالعين التى ينظر بها الناس ولا يرون السيارة إلا سيارة،ولا الرجل إلارجلا ولا الفتاة إلا فتاة!

وألقى من يده تلك المجاميع ليتناول مجموعة من صور التماثيل التى صنعها الأقدمون والمحدثون وحفظت أصولها فى دور الفنون والآثار، بعضها فى متحفنا المصرى وبعضها فى العواصم الأوربية... فبدرت منه هتفة إعجاب بنخبة من تماثيل الملوك والملكات والكهان فى عصور الفراعنة ، وأدهشه ما يمثله الحجر — ثم تمثله الصورة المأخوذة عن الحجر — من قوة الخلق ودقة الملامح وبروز السمات الشخصية على خلاف ما توسم فى تماثيل الإغريق

قال : ما كنت أحسب أن المصريين برعوا الإغريق فى هذه الفنون ، ولا سيما فى النحت والتصوير

قلت: كان ينبغى أن تحسب ذلك بداهة قبل أن تلمحه بالعيان ، فالمصرى القديم كان يعنيه التخليد قبل أن يُعنى بالنقل عن نماذج الطبيعة . ومن عنى بنقل النماذج العامة أغناه الوصف المشترك بينها عن السمات الخاصة والملامح الشخصية . ولكن المصرى الذى كان يصنع التمثال كما يحنط المومياء لتخليد صاحبها ودوام جسده ومقومات شخصه لم يكن له معدًى عن تمييز معارفه والتدقيق فى تمثيل صفاته . فمن ثم كان المصريون الأقدمون أبرع من الإغريق الأقدمين فى نقل الملامح والقسمات ، ولولا

أن الأغريق أطلقوا الدنيا و إن المصريين قيدوا دنياهم بآخرتهم لجاء فن الاغريق بعد فن الفراعنة الأقدمين بأشواط فساح

قال : ولعلهم من أجل هذا قربوا الصلة بين قيود الفن وقيود الأخلاق . فندر فى صورهم العرى وعرض المفاتن المثيرة ، وتعمدوا أن يستروا من الأجسام ما تقضى الأخلاق بستره ، خلافاً للسنة الشائعة فى رسم الصور ووضع التماثل .

قلت : إنهم فى الواقع أقرب إلى ستر الأعضاء من غيرهم ، فلم يكشفوا من عورات الأجسام إلا ما صنعوه لآلهة التناسل فى المحاريب المزوية ، ولكنى لا أخال المسألة هنا مسألة حياء اتصف به قدماء المصريين وتجرد عنه الآخرون ، وإنما كانت تماثيل المصريين الأقدمين تماثيل أشخاص معروفين لا تماثيل أجسام يتخذونها نموذجاً للجسم القوى والجسم الجميل ، ولا حاجة إلى عرض خفايا الجسم فى تماثيل الأعلام المعروفة : أما نماذج القوة ونماذج الجمال فيختلف الحكم عليها بعض الاختلاف — فإن إظهار العضلات والألواح وإظهار الزوايا والمدارات ، قد يتمم النموذج ويلزم المثال فى أداء عمله أشد من لزوم الوجوه والرؤس

ثم قلت : وعلى هذا ربما أدهشك كما أدهشنى حين قرأت

لأول مرة أن الأصل فى ستر الأعضاء إنما يرجع إلى الأنفة من وظائفها لا إلى الحياء من شهواتها ، وأنهم كانوا يعافونها فيسترونها ولم يستروها لأنهم يخشون فتنتها ، فما أعجب أصول الأخلاق ، وما أعجب منبت الحياء !

قال صاحبي : وكان من الذين يتحرجون ولا يمنعهم تحرجهم أن يسمعوا وجهات الأنظار : من أى منبت نبت فهو اليوم فضيلة من كبريات الفضائل ، أو لعله اليوم أصل الفضائل جميعاً . . . فلماذا يكشفون ما ينبغي أن يستر ، ولماذا يلزمون تماثيل الناس قلة الحياء وهم يطلبون الحياء من الأصل الأصيل !

قلت : أولى لهم أن يستروا ما يعاب كشفه ولا حاجة إلى ابدائه . على أن المثالين قد خدموا الأخلاق من حيث لا يريدون حين عودوا الناس ان ينظروا إلى الجسد الواحد نظرات متعددات ، لأن النظر للشهوة وحدها معيب كعيب الخلاعة والابتذال ، وما زال الغزل بين أنواع الشعور ثروة لنفس الإنسان تخرجها من فاقة الطبع الى غناه . فالطبيب ينظر إلى جسد المرأة الحسناء فينسى الجمال والشهوة ويذكر الطب والرحمة ، والرجل ينظر إلى أخته أو ابنته فينسى أنها امرأة من جنس النساء ويذكر الحنان

والمودة ، والممثل يقبل الممثلة و ينسى لذة التقبيل ليذكر براعة التجويد والإتقان . والعينان اللتان تبصران ألف جسد على شاطىء البحر فى كساء الحمام لا تفتتنان كما تفتتنان بجسد واحد فى مثل هذا الكساء بين الجدران ، فإذا تعود الناس أن ينظروا إلى التمثال فيذكروا جماله واتساق أعضائه وتناسق أوصاله و ينسيهم ذلك أنهم من ذوى الشهوات بضع لحظات ، فهم كاسبون فى الأخلاق فضلاً عن الأذواق ، وليسوا بخاسرين

***

وعاد صاحبى إلى ترتيب المكتبة الذى بدا لأول وهلة أنه لا يعجبه ولا يريحه ولا يتيح له أن يجد طريقه فيه ، لأنه أعرض عن كتب الصور والتماثيل ومد يده إلى بعض الكتب التى تجاورها على رفها فإذا هى فى المنطق وما إليه . قال ما هذا ؟ أمن بيكاسو وأروزكو و براك وتماثيل الفراعنة والجرمان إلى ارسطو وكانت وهيوم ؟ لم أر موضعاً أبعد عن المنطق من موضعه فى هذا المكان

وكانت هذه الملاحظة وأشباهها تفتأ تعاد من كل زائر طرق هذه الحجرة ونظر فى كتبها ورفوفها ، ولم تكن بى حاجة إلى

بيان عنها لأن البيان الوحيد أننى أجدها كل حين ولا أملك أن أرتبها كل حين ، وأننى مع هذا لا أضل فيها عن طريق كتاب أريده منها فما حاجتى إلى ترتيب لها غير هذا الترتيب ؟

ولـكننى رجعت بصاحبى إلى المنطق الذى أحتكم إليه فقلت : وهل يقضى المنطق بغير ما تراه ؟ ما الحاجة إلى عناء الترتيب والتبويب إن كنت بغير ترتيب ولا تبويب تدرك ما تريد ؟ وأى ترتيب ينتظم فى هذه الحجرة من ناحية إلا ليختل من ناحية أخرى ؟ أترتيب الحجم أم الموضوع أم تاريخ الاقتناء أم المؤلفين ! ولم العناء ؟ إن المنطق الذى تحتكم إليه أسباب وعلل؟ فهل من سبب وهل من علة ؟

قال: لست على المنطق بغيور فاصنع به ما تشاء وضعه حيث تشاء . وما جدوى المنطق فى المكتبة وما فى الحياة من منطق يعقله العقلاء

قلت : أما هذا يا صاحبى فلا . وإننا لعلى شرطنا الأول أن ندع المردة فى قماقمها ولا نطلقها ، ولـكننا قادرون — وهى حبيسة — أن نقول فى أمان : أن المنطق والحياة لا يفترقان ! ! وأن الآفة فيمن لا يفهمون المنطق أنهم لا يحسونه ، وفيمن لا يحسون الحياة أنهم لا يفهمونها ، فما من شىء فى هذه الحياة

يناقض المنطق بحال ، فإن فهمناه فهو مفسر بأسبابه ومقدماته ، و إن لم نفهمه فليس لنا أن نناقض بينه و بين المنطق أو القياس

قال : عجباً ! أوكذاك ؟ إننا لنرى كل يوم أموراً لا نفهمها ولا يراها الناقدون تجرى إلا على خلاف وجهها ونقيض استقامتها ؛ هذا الغنى بخيل وذلك الفقير كريم . هذا الفتى المقبل على الحياة يقدم على الموت فى شجاعة وخيلاء ، وذلك الشيخ الذى شبع من الحياة يجبن ويخاف . هذا الذكى محروم وهذا الغبى مجدود . فأى منطق فى هذا وأى قياس ؟

قلت : كل المنطق وكل القياس. إن الذكى لا يصنع مقاديره فيصيب فيها بذكائه و إن الغبى لا يصنع مقاديره فيخطىء فيها بغبائه ، و إننا لنضع المنطق فى غير موضعه حين نجعله حسبة أرقام وأعوام ، فإن الفتى الذى يقدم على الموت لا يفعل ذلك لأنه يحسب الأعوام التى عاشها والأعوام التى ينبغى أن يعيشها ، ولا يقدم على الموت لأنه يريد أن يقدم عليه ، ولكن الوضع الصحيح أن نضع دوافع الحياة التى تحفزه إلى المجد والغلبة والثناء وتخجله من العار والمهانة والعقاب ثم نضع أمامها دواعى الحرص والحذر والإشفاق ، فإذا كانت تلك الدوافع أقوى من هذه

الدواعى فالمنطق الصحيح إذن أن يقدم على الموت ولا يستسلم للحذر والمخافة ، و إذا كان الشيخ على نقيض ذلك قد تغلبت فيه المخاوف على دوافع الشباب فالمنطق الصحيح أن يتشبث بالحياة التى يرفضها ذلك الشباب وهو فى مقتبل صباه . وما من غرابة إلا وهى مفهومة معقولة منطقية قياسية حين نضعها فى وضعها الصحيح ، و إنما نخطىء المنطق لأننا نخطىء الإحساس ، فلا تصدق خصيان العقول والنفوس حين يزعمون أنهم من ذوى الإحساس لأنهم لا يفكرون ولا يقيسون . فإنما الإحساس القويم هو الفارق الوحيد بين المنطق القوى والمنطق الضعيف ، و إنما الخطأ فى المنطق خطأ فى الإحساس بالأمور على حقائقها النفسية . . . أتعرف أولئك النظامين الذين يحفظون التفاعيل ليحسنوا وزن الشعر ، فلا تستقيم لهم التفاعيل ولا تستقيم لهم الأوزان ؟ لو أحسوا بآذانهم لصححوا التفاعيل وصححوا الأوزان معها ، وكذلك الذين صفرت نفوسهم فلا يشعرون بالحياة على حقائقها يتهمون المنطق وهو براء ، وهم الذين لا ينطقون ولا يحسون

ترى هل يخطىء المخطئون فيحسبون الغنى أولى بالسخاء

والفقير أولى بالضنانة لأنهم يحسون ولا يفكرون أو لأنهم لا يحسون ولا يضعون شعوراً أمام شعور بل أرقاماً أمام أرقام ! ترى لو أحسوا ماذا يختلج فى نفس الغنى فيبخل وماذا يختلج فى نفس الفقير فيجود ؟ أكانوا يخطئون فى المنطق ويضلون عن سواء السبيل ؟

إننا نتكلم فى الغنى والفقر فلنمض فى القافية ولا ندع الكلمتين قبل أن نقول : إن فقر العقول لم يكن قط شهادة بغنى النفوس ، وإن ثروة النفس لا تحرم صاحبها ثروة العقل بل تعينه عليها وتزيده منها . وهذا فيما أحسب فصل الخطاب فى قضية الفقراء المنطقيين الذين يثبتون غناهم فى الحس والشعور بشهادة فقر فى باب المنطق والتفكير .

* * *

وقبل أن يتقدم صاحبي إلى ركن الشعر والشعراء وهو ربع المكتبة بادرته بالشرط المعهود : لا نفتح القماقم ولا نتجاوز العناوين !

قال : نعم الشرط فيما أرى . فما نحن بخارجين من هذه الحجرة لو أطلقنا مارداً واحداً هنا وانطلق وراءه إخوانه المتحفزون . ولا

أخفى عليك أننى لست على مذهبك فى الحفاوة بالشعر لأنه فضول شبعنا منه نحن الشرقيين وطال اشتياقنا إلى تعويد أبنائنا ملكة العمل بعد ملكة الكلام !

قلت : لك رأيك فى الحفاوة بالشعر والشعراء . أما الحقيقة فهى أننا كنا عاملين عندما كنا قائلين ، وأنه لم توجد قط أمة عرفت كيف تعمل إلا عرفت كذلك كيف تقول ، فلا تناقض بين القدرة على العمل والقدرة على القول . وما يستطيع إنسان أن يعمل حسناً أو يقول حسناً إلا بوعى صحيح . والوعى الصحيح قسط مشترك بين ملكة العمل وملكة الشعر . ولولا أن الشعراء يحتاجون إلى صناعة التعبير و يفرغون لإتقانها لما منعهم الشعر أن يكونوا أقدر العاملين

أتحسب العرب كانوا متخلفين فى ميادين الأعمال لأنهم كانوا سباقين فى ميادين القصيد زمناً من الأزمان ؟ أرأيت اليونان قد نبغ فيهم القادة والساسة والمدبرون إلا حين نبغ فيهم الشعراء والمنشدون ؟ أتعلم أمة من أمم الأرض فى العصور الحديثة أطبع على مراس الواقع والعناية بالفكر العملى والخلائق العملية من أمة الإنجليز ؟ فهل رأيت أمة من جيرانهم ومنافسيهم سبقتهم فى

مضمار الشعر وأنجبت نصف من أنجبوه من عباقرة الشعراء ؟

زعمونا — أو زعمنا لأنفسنا نحن الشرقيين — أننا خياليون وأننا لو أصبحنا واقعيين لنفضنا عنا غبار الخمول. والحق الذى لامرية فيه عندى أننا واقعيون فاشلون فى الواقعيات ، فليست قصور ألف ليلة وليلة ولا حسانها وجواهرها وموائد طعامها وشرابها خيالاً يحتاج إلى ملكة من ملكات التصور والإدراك ، ولكنها كلها واقع ناقص أو واقع موقوف التنفيذ . فإذا حصل التنفيذ حصل الواقع الذى يلمس ويرى ويشم ويذاق . واليوم الذى نتخيل فية فنحسن التخيل هو اليوم الذى ننفض فيه غبار الخمول . لأننا نحسن الوعى بهذا التخيل ونطبع الصورة الصادقة فى بدائهنا من صور الوجود ، ولن تنطبع فى النفس صورة صادقة لما حولها وهى راكدة قاعدة أو عازفة عن الحركة والسعى والاستجابة لتحول الأحوال

فكن على رأيي أو رأى غيرى فى الحفاوة بالشعر والشعراء . ولكن لا تجعل الشعراء مقياسك الذى تقيس به قدرة العمل ، لأنهم يتفرغون للتعبير فيفوتهم التفرغ لما عداه من الشئون ، واتخذ مقياسك من الأمم العاملة القائلة تجد أن الشعر الأصيل

والعمل الأصيل يرجعان معاً إلى فرد مقياس، وهو الوعى الأصيل .

وهممنا أن نترك الحجرة التى قضينا فيها معظم هذه السياحة فأنصفناها أعدل الإنصاف لأننا فى الواقع نقضى فيها معظم الحياة

وعدل صاحبى عن الرفوف إلى الجدران فقال : إننا دخلنا هذه الحجرة ونحن نقول : إن النور أخفى الأشياء ، لأنه أظهر الأشياء بل مُظهر الأشياء ، وها نحن أولاء نغضى عن الجدران الظاهرة ونبحث عن الرفوف والصفوف . فمن هذا وما ذاك وما هنالك على هذه الجدران التى رأينا ها أول ما رأينا ؟ ألم تكن أحق منا بالسؤال عنها أول ما سألنا ؟

وكانت على الجدران صورة فنية واحدة لا ثانية لها من نوعها وهى صورة الفتاة الحزينة على قبر حبيبها الدفين ، وقد كتبتُ عنها فى ساعة من الساعات بين الكتب فلم يكن السؤال عنها بحاجة إلى جواب . أما سائر الصور فقد كانت أوضح من أن تحتاج إلى توضيح ؛ جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول وكارليل و بيتهوفن ، وصورتان من صنع الفنان النابغ صلاح الدين طاهر أحداهما صورتى بعد الأربعين والأخرى صورتى بعد الخمسين ! .

ولقد تجمعت هذه الصور فى أماكنها بمحض الاتفاق فى نيف

وعشرين سنة، فلم أعرف لها وحدة تجمعها إلا بعد أن تجمعت وحدها وساءلت نفسى عن تلك «الوحدة» كما كان يسألنى الناظرون إليها

قال صاحبى وهو يومئ إلى الصور واحدة بعد واحدة : هذا موسيقى المانى ، وهذا حكيم إنجليزى ، وهذا مصلح افغانى ، وهذا وزير وهذا مفت ، وهما مصريان ! . فما الذى جمعهم فى صعيد واحد وهم بهذا التفرق فى المواطن والشواغل والأهداف ؟

قلت : الجد والكفاح ونبل السليقة وقلة الاستخفاف .

فهؤلاء الثلاثة شرقيون من رجال العمل والحركة ، وأعمالهم فيها النهضة الاجتماعية والثقافة الدينية والثورة الوطنية ، ولكنهم كلهم مجدون مكافحون نبلاء ، لا يستخفون بما يعملون ولا يدينون بشريعة الاستخفاف التى يتراءى بها بعض الساخرين من الحكماء

قال : لكأنى بك لا تحب الساخرين

قلت : كلا . بل أحبهم ساخرين وجادين مكافحين . ومن أعجبه كارليل و بيتهوفن لا يكره السخر بل لا يكره السخط أحياناً على الحياة . ولكن شتان سخط وسخط وشتان رضوان ورضوان

أتعلم يا صاحبى ماذا أحب وماذا أبغض من مذاهب السخرية بل من مذاهب السخط والتشاؤم ؟

إن النظرة إلى المرآة هنا هى مقياس النظرة إلى الحياة . فإنك لا تسخط عليها إلا لأنك تكبرها ، ولا تترك السخط عليها والسخرية منها إلا لأنها هينة عليك حقيرة فى عينيك

الزوجة تغضبك وتقيمك وتقعدك ولكن البغى المستباحة لا تثير منك غضبة ولا تكلفك حساباً ولا عناية . فإذا اقترن السخط بالجد والاهتمام فالحياة شريفة مرعية تلقاك منها المغضبات بغير ما تتوقعه وما تتمناه ، و إذا بطل السخط و بطل معه السخر اللاذع فالحياة جثة مستباحة بلا عرض ولا كرامة ، وهذا الذى أوثر عليه سخط الساخطين وسخر الساخرين

وإنى لأسمع من هذه النافذة بين حين وحين صوت امرأة لا تنى تنذر وليدها بالخيبة وسوء المآل : أأنت تفلح فى شىء قط ؟ والله ما أنت بمفلح ولا بمقلع عما أنت فيه ! . . خيبنى الله إن لم أرك خائباً هكذا بين أبناء الأمهات

وهذا سخط كسخط فريق من الفلاسفة المتشائمين على الدنيا ومن فيها ، ولكنه سخط من يريد الخير ومن يسوءه صدق ما يقول، ومن هو أول الفرحين والمستبشرين لو جرى الأمر على غير النبوءة التى يقسم عليها جاهداً ، ويخيل إليك أنه قد

جزم بها كل الجزم وفرغ منها غاية الفراغ

هذا سخط من يعنيه أن يسخط ويعنيه أن يرضى ، هذا سخط من يسخط على نفسه وهو ساخط ، أو من يسخط لأنه يحاول أن يرضى فما استطاع

إما أولئك الفلاسفة الراضون بالدنيا لأنهم يلتذون عيوب الإنسان ويبحثون عنها بحث المحبور بالنقص المحزون بالكمال — فبينهم وبين أولئك الساخطين بون بعيد ، بين هؤلاء وهؤلاء ما بين الأم التى تنعى خيبة وليدها والعدو الذى ينعى خيبة عدوه ، فتلك تنعى وهى كارهة آسفة ، وهذا ينعى وهو راض قرير ، وتلك تحفز إلى العمل والصلاح ، وهذا يصد عن العمل والصلاح .

أولئك المتشائمون أصدقاء الحياة والإنسان ، وهؤلاء المتشائمون أعداء الحياة والإنسان

وليست العبرة فى مذاهب الحكمة بالأسماء والعناوين ، ولكنما العبرة حق العبرة بالبواعث والنيات ، وربما نظرت إلى البواعث والنيات فرأيت بعض المتشائمين أقرب إلى حب الحياة والإشادة بفضائل الأحياء من بعض المازحين والضاحكين

قال صاحبى : إن كثيراً من الناس ليفهمون قولنا حين نقول

لهم إن كارليل فيلسوف متشائم ، ولـكن كم منهم يفهموننا حين نقول : إن بيتهوفن موسيقار متشائم أو مناضل ؟ وكم من الناس فى الشرق خاصة يرى فى صناعة الألحان متسعاً لآراء المتفائلين وآراء المتشائمين وآراء المناضلين ؟ . . إنما يحسبون ذلك وقفاً على التعبير بالـكلام ، دون التعبير بالألحان ، فإن وصفوا لحناً بالتشاؤم فأول مايسبق إلى إخلادهم أنه لحن جنازة أو لحن شجن وأنين . . . وإنما يسوغ التعبير الموسيقى فى معانى المذاهب الفلسفية عند طبائع الغربيين ولا يسوغ عند طبائعنا نحن الشرقيين . أو ليس هذا هو الفارق بين موسيقى الغرب وموسيقى الشرق التى ورثناها عن الآباء منذ عهد بعيد ؟

قلت : لا أحب أن أظلم الطبائع الشرقية ولا أود أن أفرد الطبائع الغربية دون سواها بتلك الفضيلة ، فان الموسيقى الغربية لم تـكن من قديم الزمان على هذا الطراز الذى نسمعه من بيتهوفن وأمثاله ، وإنما اتخذت منهجها الحديث حين نشأت فى ظل القداسة الدينية ثم عبّرت عن مسائل الروح وأسرار الوجود التى تشتمل عليها الأديان ، ثم استولت عليها المذاهب الـكونية حين استولت فى الغرب على تراث الدين كله وعلى مسائل الروح

بما رحبت ، فلم ينعزل الموسيقيون عن الفلاسفة والشعراء و باعثى النخوة فى صدور الأمم يوم تعاقبت بينهم نهضات الإصلاح والحرية ، وقديماً كان فى اليونان وفى بلاد الجرمان منشدون وملحنون فلم ينهجوا على هذا المنهج الحديث ولم يرتفعوا بالموسيقى كثيراً عن منزلة الطرب وتمليق الحواس وتمثيل الشعور المحدود .

ولعلنا نقترب إلى الإنصاف وندنو من التحقيق حين نقسم الموسيقى إلى نهجين يختلفان باختلاف الذوق والبديهة ولا نقسمها إلى إقليمين « جغرافيين » بين أناس فى الشرق وأناس فى الغرب ، أو أناس فى الشمال وأناس فى الجنوب

فهناك موسيقى الحس المحدود وهى التى تؤدى لنا وظيفة الجارية والنديم ، وتسلينا بأنغام الفرح حين نفرح وأنغام الشجن حين ننوح

وهناك موسيقى الروح وهى التى تخاطبنا من منبر الإلهام وشرفات الغيب وتجلس لنا مجلس المفسرين والهداة ، وتقول لنا ما يعجز عنه الكلام ، لأن الألحان لا تقصر عن وصف الأسرار حين تقصر عنها المعانى والحروف .

ولدينا من جهة أخرى موسيقى الحس الحى التى تطربنا

وتشجونا كما يختلج الطرب والشجو بالجسم القوى الصحيح

ولدينا من جهة أخرى موسيقى الحس المريض التى تطرب من تطرب وتشجو من تشجو كأنها السم المخدر أو الشهوة السقيمة التى تترهل بها الأجسام فى مخادع اللذات

وقد تقترن الموسيقى بالسعة والضيق و بالسمو والهبوط ، على حسب السامع المصغى إليها والمتعقب لأنغامها

فمن الآذان الشعرية مثلا ما ليس يتسع لغير القافية الواحدة فى القصيد الطويل

ومنها ما يسمع القصيدة الواحدة وفيها عشر قواف تتكرر فى أماكنها، فتحسن انتظارها حين تعود وتجرى مع كل قافية منها فى مدار

وكذلك الأوزان الموسيقية فى آذان السامعين ، ربما أتعبت أناساً بتكرارها وأراحت أناساً بهذا التكرار ، و إنما المعول فى الحالتين على الأذن التى تتعقب وتحسن التعقب والتعقيب

أترى اليدين اللتين تلعبان بخمس كرات وسكينتين و بيضات مع الكرات والسكينتين لا تزال تقذفها اليمين وتتلقاها الشمال أو تقذفها الشمال وتتلقاها اليمين ؟ إنهما يدان من لحم ودم كتينك اليدين اللتين تكسران البيضة الواحدة إذا تناولتاها على غشم

وجفاء . فإذا مرنت البديهة الصاغية فقد تداول بين عشرين وزناً تتلقاها فى مواقيتها ولا تحار بين واحدة منها وواحدة كلما رجعت إليها ، و إذا أخطأتها هذه المرانة — أو هذه القدرة — فقد يعنتها الوزن الواحد فى غير ميقاته المحدود . ولا خطأ فى الموسيقى هنا وهناك ، و إنما هو الخطأ فى التناول والأتباع

* * *

قال صاحبى مبتسماً : وأخالها لعبة عسرة على آذان المستمعين عندنا . . . . خمس كرات و بضع بيضات وسكينتان فى يدين اثنتين .. . هذا كثير على سامعى العود والقانون فى هذا الشرق « اللطيف » . . . إنى ليائس من اليوم الذى يتجمع فيه لسماع الموسيقى العالية جمهور يعد بالمئات والألوف ، كذلك الجمهور الذى يتجمع لها فى أندية الأوربيين

قلت : إن أجلنا اليأس فلا ضير فى تأجيله ، فان الأغانى الشعبية عندنا لا تزال سليمة من مرض الترهل والغواية ، وهى لا تحتاج إلى مرانة كبيرة فى المنشدين ولا فى المستمعين . فأما الموسيقى التى لا غنى فيها عن مرانة الآذان والأذواق فهى تلك الموسيقى العالية التى نتمنى لنا نصيباً منها كنصيب الأوربيين

أو أوفى من ذلك النصيب . وليس لنا أن نيأس من عقباها بيننا حتى تؤدى واجب المرانة المطلوبة فى الجيل الناشىء تمهيداً لما بعده من الأجيال . فإذا حسنت هذه المرانة جيلاً واحدا ولم تثمر فى الشرق ثمرتها المنشودة فهناك مجال لليأس أو للشروع فيه .

ويخيل إلينا أننا لم نبدأ هذه المرانة بعد على وجهها المفيد . لأننا خلقاء ألا نترقب فناً موسيقياً عالياً قبل أن نفصل بين الذوق الفنى وبين المتعة الجنسية أو المتعة الجسدية ، ونحن لا نزال نقبل على مجلس السماع جنسيين جسديين ، يتعصب الذكور منا للمغنيات الأناث ويتعصب الأناث منا للمغنين الذكور

قال : وما آية هذا الفصل بين ذوق الفن وبين الغريزة الجنسية ؟

قلت : آيته أن ترى السامعين يحيون السماع بغير ما ألفناه من التصدية والتصفيق ، وبغير ذلك الأسلوب الناشز من الخبط والصريخ ، فأن الصفة الأولى التى لا تنفصل من الموسيقى والغناء هى صفة الانسجام والتناسب بين الأصوات ، ولن تسيغ الأذن الموسيقية زعيقاً ولا اقتضاباً وهى تصغى إلى تناسب وانسجام . إنما السامع المصغى إلى الغناء الذى يصيح تلك الصيحات المزعجات حيوان لذعته الغريزة فجمح فى غير اناة ، وليس هو بإنسان يملكه

جمال النسق وتستهويه متابعة النغم فى مسالك الالفة والنظام .
وليس فى وسع الأذن أن تكون أذناً موسيقية ثم تنتقل من الفوضى إلى النسق ومن النسق الى الفوضى فى لمحة عين ، وليس فى وسعها أن نسيغ الفن وتسيغ نقيضه فى آنة واحدة . وهل الفن إلا أوزان ؟ وهل نقيضه إلا الأصداء والأخلاط التى تنطلق بغير عنان ؟ . . .

فالصاخب الذى تلذعـه الغريزة فيصيح ويقتضب الغناء معقول ومفهوم

أما الذى لا يُفهم ولا يعقل فهو ذو نظام وذو فوضى ينطلقان فى لحظة واحدة ، ولا يزالان كذلك متقلبين مترددين فى شخص واحد ساعةً أو بضع ساعات

قال : كأنمـا الذنب ذنب المستمعين .

قلت : ليس فى فنون الجماهير ذنب واحد . بل ذنوب تشمل المسمعين ومن يستمعون إليهم ، ومن لا يسمعون ولا يستمعون !

***

وكانت صورة بيتهوفن تنحنى إلينا كأنها تصغى إلى حديثنا .
فقال صاحبي : ما كان أعظم فجيعة المسكين بسمعه وهو السفير

بينه و بين عالم الأصداء والأصوات . لو كان هو الذى أمامنا ولم تكن تلك صورته لما سمع من حديثنا أكثر مما سمعت هذه الصورة الصماء . فماذا كان على الدنيا لو أسمعت هذا الذى أسمعها من أقصاها إلى أقصاها ولا يزال يسمعها إلى اليوم !

قلت : هى محنة تمثلت فيها نزاهة الفن وخلوصه من ظاهرة الحس القريب . فقد سمعنا من نقاد الغرب من يقول : أن روفائيل لو ولد مقطوع اليدين لـكان هو فى ملكة التصوير روفائيل الذى علمناه . فإن كان هؤلاء النقاد قد بالغوا بعض المبالغة فقد شاء القدر أن نرى أعظم الموسيقيين مقفل الأذنين لا يسمع ما يوحيه لأنه يتلقاه من عالم النسب المحض التى لم تترجمها الأصوات . وما يتفق هذا لأصحابنا أصحاب العود والقانون وربع المقام . لأنهم كالمرأة التى تنظر إلى مرآتها ولا تفارقها . فإن فاتهم أن يسمعوا أنفسهم فقرة بعد فقرة لم يحسنوا إسماع الآخرين

وتهيأ صاحبى لسؤال يتردد فيه فقال وهو ينقل بصره بين الصور المتجاورات : إنك لم تجمعها عمداً على هذا التفاوت البعيد فيما بينها . فأما وقد اجتمعت على غير قصد منك فهل خطر لك

قط أن توازن بين أصحابها وأن تسأل نفسك أيهم أعظم وأيهم أحق بالإكبار والإعجاب ؟

قلت : لا يخطر لك على أية حال أننى أنزل بقدر الموسيقى العظيم عن قدر المصلح العظيم أو الزعيم العظيم . إن الأئمة الموسيقيين أندر فى العالم من أئمة الاجتماع وأئمة السياسة ، فلا تحسبنه حتما لزاما أن يكون زعماء الاجتماع أو السياسة أعظم من زعماء الفنون ، لأن المعول على الكفاءة اللازمة للعبقرية لا على أثرها فى مواطن الجاه والسلطان ، وليست حاجة الناس إلى الشيء هى مقياس العظمة فيه ، لأن الناس يحتاجون إلى سنابل القمح ويستغنون عن اللؤلؤ والزمرد ، وليس القمح بأجمل ولا أبدع فى التكوين ولا أغلى فى الثمن من الجوهر الذى لا نحتاج تلك الحاجة إليه

قال : وهؤلاء الثلاثة العاملون . من أعظمهم فى موازين الرجال؟

وأشار إلى جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول

قلت : أعظمهم أثراً فى قطر واحد هو سعد زغلول ، وأعظمهم أثراً فى جميع الأقطار هو جمال الدين ، وأعظمهم نفساً فيما أرى هو محمد عبده ، أوسط الاثنين

قال : وبم كان أعظمهم فى موازين النفوس ؟

قلت : إن عظماء البطولة الإنسانية لا يوزنون بغير الصفة العليا التى تتجلى فى البطولة ، وهي الإيثار

فإذا تعادلت كفاءات العقل واللسان وكفاءات العزم والعمل، فليس فى الميزان الإنسانى أصدق من وزنة الإيثار للمفاضلة بين المتقاربين فى الأعمال والأقدار

قال صاحبي متعجباً : ومحمد عبده الذى تسنم المناصب ولم يحرم نفسه متعة الأبوة والزواج أعظم أيثاراً من جمال الدين ؟

قلت : قد تكون العزوبة مزيداً من الاعتداد «بالشخصية» وقد تكون الأبوة مزيداً من الإيثار

قال : عليهم سلام الله أجمعين ، سابقين ولاحقين، وراجحين ومرجوحين ، فليس بالمرجوح من له الرجحان على الألوف وألوف الألوف ، وإن سبقه بالرجحان أستاذ أو مريد

* * *

وتحول صاحبي إلى صورتى فقال وهو يردد النظر بينى و بينها: لقد سألتك عن صور غيرك فما لى لا أسألك عن صورتك ؟ كيف ترى صديقك الفنان قد مثلك فى هذه الأصباغ والألوان؟

قلت : على شرطى فى كل تمثيل

وشرطى فى الممثل القدير – على المسرح – إنه هو الممثل الذى يمثل لك ما لا يقال ، أو هو الممثل الذى يشغل فراغ القول بين عبارة وعبارة من كلمات المؤلفين . لأن مصاحبة الكلمة الضاحكة بالمنظر الضاحك أو مصاحبة الكلمة الباكية بالمنظر المحزن فن لا يعسر على الكثيرين، وإنما يعسر عليهم أن يمثلوا لك ما لا يقال بين الكلمتين أو بين المنظرين : يصعب عليهم أن يمثلوا لك ما تدركه أنت ولا يقوله المؤلف بلسانه ولا تسمعه أنت بأذنيك

وكذلك أرى صورتى كما صورها صديقنا الأستاذ صلاح ، لأنه يمثل القابليات ، قبل تمثيل الملامح والمحسوسات ، فليس فى الصورة حالة محسوسة عُنى بها دون غيرها ، ولكن ما من حالة قد تطرأ على النفس إلا نظرت إلى الصورة فرأيتها قابلة لها موافقة للتعبير عنها ، وهذه هى ملكة الإيحاء التى تشترط فى جميع الفنون . فما تحبسه الكلمات والأصباغ من المعانى أو الملامح أقل فى العمل الفنى مما ينطلق به الخيال أو يسترسل فيه تداعى الخواطر والأفكار

***

وكان آخر ما ودعه صاحبي من المكتبة نخبة من الكتب فى فن الغذاء وأقوال المحدثين عن وحدات الحرارة والفيتامينات ، وأول ما استقبله وهو منصرف عنها باب المطبخ على اليمين. فنظر فيه ضاحكا ، وبادرته سائلا :

إنك الآن تضحك لأنك فى حال من المقارنة بين طعام العقول وطعام الجسوم !

قال : غير هذا قد خطر ببالى حين ضحكت ، وإنما ذكرت قولةً لصديق لى كان يستعيدها فى مناسباتها كما تستعاد الحكم المحفوظة ، ولست أدرى كيف أطبقها فى هذا البيت ، فانها غير قابلة فيه للتطبيق

قلت : طبقها ولا حرج عليك

قال : لا ... إنها لا تنطبق هنا بحال من الأحوال ، لأن صاحبي كان يقول ويزهى بالعلم الذى أوحى إليه حين يقول : إن خطبت فتاة فلا تسأل عن أبيها ولا أمها ولا تسأل عن مالها ولا أدبها ، وإنما تحتال حتى تلقى نظرة فاحصة على مطبخ بيتها ثم تخطبها إذا أعجبك نظام المطبخ وأنت مغمض العينين

قلت : لم يعدُ صاحبك الصواب ، ولو شاء لعمم هذا الحكم

المصيب على الأمم فقال : إن أردت أن تخبر أمة من الأمم فلا تسأل عن نسبها ولا حسبها ولا تسأل عن مالها ولا أدبها ، و إنما تسأل عن « مطبخها » فيغنيك العلم به عن كل سؤال

قال : وكأنى بهذا الرأى — لو صح — يتيح لنا أن نقول إننا نحن الشرقيين سادة العالم وقادة الشعوب ، لأننا أساتذة الشعوب فى المطبخ والمخدع باتفاق الآراء ، وما ينازعنا القوم فى الأستاذية إلا حين يذكرون المعمل والمدرسة،أو حين يذكرون العلوم والصناعات

قلت : وهنا أراك قد أخطأت التطبيق يا صاحبى فى حكمة صاحبك الأديب . فان المطبخ « المثـــالى » هو المطبخ الذى يستخدم للغذاء وليس بالمطبخ الذى يستخدم للذة الطعام أو لذة النوم ،وقد يكون الطعام اللذيذ سما فى باب الغذاء ويكون الطعام وافر التغذية وهو قليل اللذة ، أولا لذة فيه

ولا ينكر علينا أحد أننا برعنا فى مطبخ اللذة «وورثنا فى هذا الفن تركات روماو بيزنطه ومنف و بغدادوفارس والهند والصين ... وعرفنا كيف نطبخ الطبخة التى تمتع والطبخة التى تكظ البطون والطبخة التى تهيج الأكبادوالطبخة التى تعين على الشراب، وجرب

ذلك الغربيون فشهدوا لنا بالسبق فى المجال من نساء ورجال

كتبت « ايزادورا دنكان » أجمل الراقصات فى العصر الحديث تاريخاً لرحلاتها فى الغرب والشرق فذكرت أكلة لها فى قطر من أقطار أوربا الشرقية فلم تنس أن تقول : إنها أكلتها ونامت فاستيقظت وهى تعلم يومئذ كيف يستيقظ الرجال من النوم ويخرجون من البيوت !

وهذه البراعة فى المطبخ الشرقى الفاخر لا نزاع عليها ولا تخلو من الدلالة مع هذا على نصيب الأمة من شواغل العيش ومطالب الحياة . ولكنها تقف بنا دون البغية المرموقة إذا طمحنا بها إلى مقام الأستاذية بين الشعوب ، وإنما كتب « سوء التغذية » على أغنيائنا وفقرائنا على السواء بهذا المطبخ اللذيذ ، وربما كان داء الغنى المستمتع بهذا المطبخ أوبل من داء الفقير المحروم

وأعرف من فتياننا الموسرين فتى تزوج فأراد أن يستعين على المخدع بالمطبخ فأصيب بداء السكر فى أقل من شهرين ، وكان مصابه بالمطبخ المعين قبل مصابه بالمخدع المستعان عليه ، لأنه أقبل على الدسم والتوابل والمشهيات فأرهق الكبد وأجحف بالبدن كله من حيث أراد له الصحة والمتاع . فبئس

المطبخ مطبخ اللذة ، ونعم المطبخ مطبخ الغذاء ، وأعنى مطبخ الفرد والأمة على السواء .

قال صاحبي وهو يصطنع المزاح ولعله أقرب إلى الجد منه إلى المزاح : إنك تخيفنى الساعة بهذا التمهيد ، أترانا مقبلين على مائدة لا تلذ الآكلين ؟ أتحسبنى أطيق أن نقلب صفحة من صفحات هـذه الكتب الملعونة كلما أقبلنا على صحفة من الصحاف ؟

قلت : هَوْناً هوناً أيها الصديق ، فمهما يكن من حكم هذه الكتب الملعونة فكن على يقين أننا فى هذه الحجرات المعدودات لا نعرف كتاباً يطاع كل الطاعة ولا إماماً يتبع كل الاتباع ، ولك أن تطمئن فيها بعض الاطمئنان إلى غاندى ، و إن عز عليك أن تطمئن كل الاطمئنان إلى أبيقور

زاهد الهند نعى الدنيا وصام ... أنا أنعاها ولـكن لا أصوم
طامع الغرب رعى الدنيا وهام ... أنا أرعاها . ولـكن لا أهيم
بين هذين لنـا حدٌ قوام ... وليلمْ من كل حزب من يلوم

إن هذه الـكتب الملعونة — كتب الغذاء والفيتامين — حقيقة أن تراجع وتستشار ، وليست بحقيقة أن تسيطر على العقول والأجساد ، لأنها تعطى الجسد ما يحتاج إليه بمقدار ما يحتاج

إليه ، فتسلبه بذلك ألزم خصائص الجسم الحى وهى طبيعة التعويض والتمثيل والتصحيح ، وخير من هذا أن نعطى أجسامنا شيئاً ناقصاً فى هذه الوجبة وشيئاً زائداً فى تلك فنبقى للجسم قدرته على تعويض النقص وتوجيه الزيادة إلى وجهتها ، ونعامله معاملة الراشد الذى يعمل لنفسه ولا يكلفنا أن نعمل له فى كل لقمة وكل جرعة وكل طبخة ، ولست ممن يرتضى القصور للعقول ولا للأجسام ، فكلاهما فى القصور معيب ، وكلاهما فى الرشد جميل

قال صاحبى : وإن جسمى لمن أرشد الأجسام فى ساعة الطعام

قلت : إنك الساعة تخيفنى أشدما أخفتك يا صاح بذلك التمهيد

* * *

واستقبلنا فى ركن من أركان ردهة المائدة الصغيرة صندوقاً مربعاً يوحى إلى الناظر باسمه المتفق عليه ، وهو التابوت !

سماه باسم التابوت المقدس كل من رآه لأنه يشبه فى منظره وموقعه توابيت القديسين فى أركان المزارات . ولم أنكر التسمية لأن التابوت فيه تقديس وفيه تخليد ، وماذا على الموسيقى التى اشتمل عليها التابوت أن تتصف بالتقديس والتخليد ؟

كان هذا التابوت مشتملاً على حاكٍ قديم وبضع مئات من

القوالب الموسيقية أو الغنائية المختارة من مسموعات الشرق والغرب، ومنها توقيعات على بعض الآلات السماعية العجيبة التي تختلف بسلمها الموسيقي عن السلم الشائع في معظم البلدان، كتوقيعات أهل الصين .

ومزح صاحبي مزحة ليست بالأولى من نوعها لأنها كذلك من وحي المقام. فقال: إن هؤلاء العازفين في موضعهم هنا لأنهم يعزفون لك على الطعام فلا يفوتك حظ الخواقين والشاهات في قصور البذخ والسلطان!

وأجبته كما كنت أجيب هذه المزحة في كل حين : أن الإنسان يا أخانا لا يأكل أكلتين في لحظة واحدة : أكلة روح وأكلة معدة ، وما من كرامة الموسيقى الرفيعة أن تشتغل بشيء آخر وأنت تستمع إليها ، فإنها شاغل كاف لمن يستوعبها و يتقصاها و يتأمل في معانيها و إشاراتها ، وليست تلك الموسيقى التي تتحدث وتأكل وتتشاغل عنها وأنت تسمعها إلا بمنزلة الجارية المستعبدة من السيدة المطاعة ، لأنها تسليك وتلهيك ولا تخاطب روحك وخيالك ووجدانك فتستدعيك إلى الاصغاء والمبالاة .

لا يا أخانا وكرامة ! . . . أنني أختار لهذا التابوت أحياناً ساعات كساعات التهجد في جنح الظلام ، فإن كان الوقت شتاء فأكثر ما أرجع إلى هذا التابوت في ساعات اليقظة الباكرة

بعد هدأة النوم الأولى . ويطول الليل وتثقل المطالعة فى الهزيع الثانى أو الهزيع الثالث من ليل الشتاء المديد . إن قبلت هذا التقسيم والترتيب للهزع الليلية . فإذا بى معرضاً عن رفوف الكتب متوجهاً إلى هذا التابوت ، لا علالة من الأرق ولا بديلاً من الورق ، ولكن تلبية لنجوى العبقريات فى وقت لا يسمع فيه غيرها ولا يوحى فيه السكون السابغ على الكون بغير وصية الإصغاء ، وكأى من مدلج فى الطريق تتسرب إليه تلك الأصداء غير مفسرة ولا متصلة فيخالها من همسات الأرواح والأشباح فى غفلة الأنس وناشئة الصباح

وتعمدت العبث والدعابة فقلت لصاحبى : أننا لا نسمعها فى أيام إذا سمعنا أناشيدها أنشودة أنشودة ، فليتنا نسمعها دفعة واحدة فى وقت واحد !... ترى كيف تتلقاها المسامع التى تطرب لها متفرقة ؟ أليس من حقها أن تسر بالكثير أضعاف سرورها بالقليل ؟

قال صاحبى : ما أحسب أن أحسن الأنغام إذا قيلت معاً تفضل أسوأ الأصوات وأنكرها فى الآذان

قلت : ألا نستخلص من ذلك عبرة من عبر الحياة العظمى؟ أليس الذين يتعجلون النعم فيخيل إليهم أن ازدحامها خير من تفرقها

واجمع لمحاسنها يخطئون كما يخطئ الذين يتعجلون النغم فيحسبون أن مائة لحن فى وقت واحد خير من اللحن الفرد وأوفى ؟

شئ واحد فى وقت واحد ، وجميع الأشياء فى جميع الأوقات... وهذا هو نظام العيش وقوام الجمال فى كل نفع وكل سرور

قال صاحبى : وهل تسمعها فى الصيف كما تسمعا فى الشتاء ؟

قلت : الحق أقول لك يا صاحبى إننى أود أن أسمعها صيفاً وشتاء كلما انتبهت فى هذا الموعد ، وقلما تمضى ليلة لا أنتبه فيها . ولكن الشتاء مقفل مستور والصيف مفتّح مكشوف . ومنظر رجل يستمع إلى الحاكى فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل منظر يرشحنى لسمعة الجنون المطبق بعد ليلتين أو ثلاث ، ولن تؤمننى من هذه السمعة اللازبه الف شركة من شركات التأمين، لو نصبت الشركات للتأمين على العقول

كلا : إننى لا أسمعها فى ذلك الموعد من الصيف ، ولكننى أستعيض منها بجلسة فى الشرفة ونظرة إلى الطريق ، وقد يبلغنى الإصغاء إلى السكون أحياناً ما يبلغنيه الإصغاء إلى أنبياء النشيد

انا نكبر بالليل جداً يا صاح

أن الليل هو عالم النفس، وأما النهار فهو عالم العيون والأسماع والأبدان

أننا بالنهار جزء صغير من العالم الواسع الكبير ، ولكن العالم الواسع الكبير كله جزء من مدركاتنا حين ننظر إليه بالليل ، وهو فى غمرة السبات أو فى غمرة الظلام

ذلك النجم البعيد الذى تلمحه بالليل هو منظور من منظوراتك ووجود منفرد بك أمام وجودك !

ذلك الصمت السابغ على الكون هو شيء لك أنت وحدك رهينٌ بما تملأه به من خيالك وفكرك ، ومن ضميرك وشعورك

تلك المدينة الصاخبة التى نضيع فيها إذا أضاءتها الشمس هى شبح مسحور يلقيه رصد الليل تحت عينيك ، وهى ضائعة كلها إذا لم تأخذها فى حوزة نفسك ، ومجال بصرك ، وكأنما هى من تلك المدن التى تسحرها لنا الأساطير ... فكلها مفقود فى غيبوبة الأرصاد ، ألا السائح الذى ساقه إليها القدر : وهو ساهر الظلام !

أنت عالم النفس بالليل ، كأنما توازن وحدك عالم الأنظار والأبدان وأنت تشمل الدنيا بالليل ، وهى تشملك بالنهار

وأنت فى حضرةٍ أعظم من حضرة الحس حين لا حس يشغلك عن عالم السريرة

أنت فى حضرة الخالق حين لا تكون فى حضرة المخلوقات

ومن سعد بهذه النشوة فى ساعة من ساعات المزيع الأخير ، فلا ضير عليه أن تفوته نشوة السماع

* * *

وكنا قد فرغنا من الطعام وقضينا سويعة فى أشباه هذا الكلام . فإذا بصاحبي ينهض من المائدة وهو يقول :

— هذه المائدة ، وهذا التابوت ..!

قلت : وهذه المزامير !

وسمعنا بعض أدوار المطربين وشيئاً من أغانى الصعيد ولبنان... ثم نقلت صاحبي نقلة بعيدة فأسمعته بعض الألحان التى لا تعذب فى جميع الآذان

وسألته . أفهمت شيئاً مما سمعت ؟

قال : لا والله !

قلت : وأنا مثلك . . . هذا موسيقار الغرب الأشهر ولهلم ڤاجنر ، وأنا لا أفهم منه إلا أقل من القليل ، ولـكنه عند نقادهم موسيقار جليل وعبقرى نادر المثيل

قال : وهل يفهمه الغربيون كلهم وهو مغلق على أناس منا كل هذا الإغلاق ؟

قلت : بل يسخر بعض الغربيين بهذه الموسيقى وأمثالها كما نسخر نحن منها ، ولهم فى التندر عليها قفشات تذكرنا بقفشات أولاد البلد ، لأنها تجرى على أسلوبها . هذا يزعم أن القرن النحاسى اعتدل من النفخ فيه بأمثال هذه الأنغام ، وذاك يزعم أن طبيباً أخذ مريضه الأصم إلى فرقة من هذه الفرق ليشفيه بضجيجها ، فسمع المريض وصم الطبيب ! .

فليست كل موسيقى مفهومة عند كل سامع ، ولو كان الموسيقيون والسامعون من بلد واحد . وليس من اللازم أن يستطيب محب الغناء كل غناء ، ولا أن يستطيب محب الشعر كل قصيد ، ولو كان من نظم أجود الشعراء .

قال : ولماذا لا نلغيه من عداد الموسيقيين كما ألغينا أولئك المبتدعين المحدثين من عداد المصورين ؟

قلت: أولئك فهمنا أنهم سخفاء . أما هذا فنحن لا نفهمه ولا ندينه بما لا نفهم. ولو كنا نحيط بكل سر من أسرار الموسيقى ونتلبس بكل مزاج من أمزجتها لصح أن نقضى عليه وعلى المعجبين به و بفنه ، فقصارانا إذن أن نقضى فيه بأنه عندنا نحن « غير مفهوم ! »

وامتدت السياحة خطوة فإذا نحن فى حجرة النوم . . .

وحجرة النوم فى بيت الرجل الأعزب كحجرة الاستقبال وحجرة المائدة وحجرة المكتب . ليس عليها حجاب .

غير أنى قلت لصاحبى أن هذه الحجرة تعنينى ولا تعنى أحداً غيرى من الناس ، اللهم إلا بعض الصور الفنية التى فيها ، وكلها منسوخة من أصولها المحفوظة فى متاحفها ، فليس فيها من صورة أصيلة أو تحفة غالية ، ما عدا واحدة بمفردها هى بينها آية الاستثناء فى كل قاعدة من قواعد التعميم .

هذه شالومة أو سلامة ، صاحبة هيرود ، من تصوير الفرنسى بروسيير : كان ثمن رقصتها فى زمانها رأس نبى من أنبياء بنى إسرائيل ولا تزال رقصات الفاتنات من خليفاتها تكلف الناس كثيراً من الرؤوس ، وإن لم تكن رؤوس أنبياء : فإن هذا الصنف قد انقطع عن الدنيا منذ زمن بعيد !

وهذه صورة الزهرة من تصوير الإسبانى ڤيلاسكيه . جسد بديع وقوام ساحر ومعاطف منسوقة لولا أمانة ڤيلاسكيه المشهورة لحسبناها من تنسيق الخيال . شغل بها المصور فمثلها على تمامها ولم يمثل لنا الوجه إلا فى مرآة رفعها رب الحب أمام ربة الجمال .

وهذه صورة تاييس وهى تهدم إيمان الناسك المسكين :

وقف أمامها وقد تبادلا الفتنة فأخذها بوعظه وأخذته بغواية جسدها ، ولبس هو طيلسان الأثرياء وخلعت هى كل طيلسان ... وكأنما شاء المصور أن يعقد المقارنة بين هذه الفاكهة الشهية وبين ثمرات البساتين ، فجوّد ماشاء فى العنب والموز والبرتقال ، ولكنه تركها إلى جانب هذا البستان الحافل كأنها الماء الذى لاطعم له ولا لون ، ولا يروى الظمآن إلى شراب ذلك البستان

قوتان متناجزتان لم تشغل الميدان قوتان أكبر منهما منذ تصارعت فى هذه الأرض قوتان :

عقيدة وشهوة ، نسك وفتنة . جسد تمرد من فرط الحرمان وروح تمردت من فرط المتاع بالشهوات

ولقد رزقت المرأة فتنة قويه ولم ترزق عظمة قوية ، فلم يزل عزيزاً عليها أن تنخذل بالفتنة أمام العظمة ، ولم يزل من دأبها أن تجرب هذا السلاح أمام كل سلاح . فجربته فى كفاح الوفاء وكفاح البطولة وكفاح النسك والزهادة ، وشاءت فى هذه الجولة أن تضرب أقوى ضرباتها لأنها آخر ضرباتها . فلما ضربتها سقطت من الأعياء ساجدة . فكانت سجدة العمر إلى الممات ، وخرجت الراقصة عابدة من ميدان صراع

وانتصر الخصمان وهما منهزمان أكبر انهزام: راقصة تفتن ناسكا وناسك يصلح راقصة ، وذلك أقصى مدى الهزيمة والانتصار .

فلما انجلى الغبار كانت الراقصة راهبة فى الدير وكان الرهب مفتونا يهيم فى وادى الغواية ، وكلاهما صارع مصروع ، ومفلح مخفق ، وصامد هارب من الميدان

* * *

وهذه صورة لسوق الرقيق فى عاصمة من عواصمنا الشرقية : تعجبنى منها عصبية الفنان لوطنه و إن لم تعجبنى منها حيدته عن الحقيقة فى هذه العصبية .

فهذه السمراء الشرقية تراها مزهوّة بعرض محاسنها كأنها ترحب بنظرات سيدها الذى أوشك أن يشتريها ، ولا يعنيها الخجل كما يعنيها أن تظفر فى هذا الموقف المخجل بنظرة استحسان.

وهذه البيضاء الغربية تدارى وجهها بيديها وتطرق برأسها وتدع الأنظار ترتع فى محاسنها كأنها تتلقاها على الرغم منها .

وفى الشرق خفر كثير لأنه وطن الحجاب ، وفى الغرب جرأة كثيرة لأنه وطن السفور . فإذا وجدت شرقية واحدة وغربية واحدة فى سوق واحدة فهل من الحتم أن تكون الشرقية مثلاً

للتهتك الوقاح والغربيه مثلاً للخفر الخجول ؟

قال صاحبي : أو لا يجوز للفنان أن يتعصب لوطنه ؟

قلت : بلى يجوز . بل يجب فى كثير من الأحيان ، ولكن على أن يصدق البيان ولا يتكفل بتشويه الحقيقه ، لأن الفن جمال ، والجمال عدو لكل تشويه

وتلى صورة الجوارى فى سوق الرفيق صورة الينبوع العذب الصافى البرود . تكاد برودته تتراءى من صفائه فى مجراه ، وقد جعله « انجرز » صبية كاعبا تنضح بالصباحة والطهارة و براءة المحيا ونقاوة القسمات ، وأعطاه عمراً وحياة كأنه لم يبلغ بعد سن الينابيع الكبار ! وكأنه بين موارد الماء الفياضة تلك الصبية الكاعب بين أمهاتها وجداتها من النساء

***

وأصبحنا أمام الصورة الأصلية التى انفردت بين هذه النسخ المنقولة .

قال صاحبي : إننى أفهمها و إن لم أعلم بخبرها

قلت : إنها لا تحتمل غير معنى واحد : فطيرة حلوة يشتهيها الجائع والشبعان ، بل يشتهيها المتخوم والمكظوط . . وعليها

صرصور وذباب يحوم، وفى القدح الذى يفرغ عليها الحلاوة عسل يضطرب فيه بعض الذباب ويموت . . فلا يأ كل من الفطيرة الحلوة على هذه الصورة شبعان ولا جوعان. بل تعزف النفس حين تراها عن كل طعام

وقيمة الصورة أن تاريخ الفن كله — بل تاريخ العبادة من أوائله — مرتبط بالباعث على تمثيلها فى هذه الرموز

فقد وجد الفن فى الدنيا لأن النفوس تمتلىء بالشعور وتشتغل به كل الاشتغال ، فلا تقنع به شعوراً بل تطابه حساً منظوراً ، ولا نشاء أن تظل فيها حاسة من حواسها فارغة منه غير مملوءة بمثاله . ومن هنا نشأ التصوير ونشأ التجسيم . ومن هنا نشأت هذه الصورة اليوم كأنها أول اختراع لفن التصوير

* * *

وكانت جولة الوداع فى حجرة الاستقبال

قال صاحبى وهو يستقر فيها : لقد سمعت عن حديقة الحيوان وقرأت فى وحى الأربعين عنها أنها «لانجمع إلا الفنان أو المحب للفنون ، تُسمى كل زميل من زملائها باسم حيوان يلاحظ فى اختياره اتفاق الشبه فى الملامح والعادات ، وقد جمعها الفن كما

كان اورفيوس المعروف فى أساطير اليونان يجمع الأحياء حين يغنى و يعزف فتقبل عليه من كل فصيلة وهى لا تشعر بخوف أو تهم بعدوان » ... فهل لى مكان فى جوار أورفيوس ؟

قلت : إن طال استقرارك ظفرت بمكان ، بعد الموافقة والامتحان . ولا تحسبن الطموح إلى هذه المنزلة من يسير الأمور التى تبلغ بغير عناء . فأولى لك أن تحسبه من الادعاء الذى يتطلب التزكية والشهادة ولا تحسبه من التواضع الذى يقبل بغير تزكية ولا شهادة ... فهل تدرى من هم أكثر الناس حرصاً على مظاهر الوجاهة وشارات الثروة وعناوين لفخار ؟ إنهم أحدث الناس نعمة وأقربهم إلى الضياع فى غمار الوضعاء والأذلاء إن لم يتميزوا أبداً بتلك المظاهر وتلك الشارات وتلك العناوين. وكذلك مقياس الانسانية عندنا فى هذه الحديقة: أصحاب الانسانية المحدثة هم أحرص على مظاهرها وشاراتها وعناوينها ، وأشبه الناس بالأحياء الدنيا من ينخلع عنه شعار الإنسانية باسم وعنوان ، و إنما يقاس نصيب المرء من الإنسانية بمقدار عطفه على الحيوان واقترابه من فهمه وفهم شعوره ، فمن قام بينه و بين معاطفة الحيوان حجاز حاجب فذلك حجاز بينه و بين الفهم والعطف والشعور ، وهى

أ كرم مزايا الإنسان . قال صاحبي : أنا لا أنكر شيئاً فى الحديقة وترشيحاتها ولكننى أود أن أعرف كيف جمعتموها وكيف جاءت هذه التسمية أو كيف اخترعتموها ؟

قلت : أحسبها تسمية ترجع إلى مرجعين لا إلى مرجع واحد ، أحدهما قريب ظاهر والآخر بعيد باطن . فأقرب هذين المرجعين هو فن المحاكاة عند صديق من أصدقائنا الأعزاء . فما تقع عينه على أحد يلفت النظر الا أسرع إلى تشبيهه ومحاكاته ، فاذا هو شبه محكم ومحاكاة تطابق الشبه من جميع وجوه المطابقة ، ولا يعفى من هذه العادة ألصق الناس به وأقربهم اليه ، بل هؤلاء هم فى الغالب هدفه الأول واصابته المسددة... وخلاقته هو على هذا القياس هى أول ما يستهدف وأول ما يصيب

فإذا تألب عليه الصحاب تندراً وسخرية ومزاحا شهر عليهم هذا السلاح وأسكتهم عنه بالبدء بنفسه والعدل فى توزيع نقمته . ومن دلائل عدله أنه لا يطلق على أحد شبها من الأشباه إلا وافقه الحاضرون جميعاً ما عدا صاحب الشبه .. فإنه قد يمانع هنيهة ثم يلقى يد السلم ويعترف « بالخلعة السنية » التى خلعت عليه

أما المرجع الآخر فأحسبنى أنا المسئول عنه من حيث أريد

أو لا أريد . فإن عادة عندى — بل أقوى من عادة — أن أشعر بوحدة الخلق كله وأن أنظر إلى جميع الأحياء كأنها تجربة واحدة تنجلى عن مقصد واحد، وإننا ربما فهمنا مقصد التجربة من مسوداتها الأولى قبل أن نفهمه من النسخة المنقحة المصقولة... وإن كانت النسخة المنقحة المصقولة أجود فى التعبير وأفصح فى الاداء .

وما قرأت قط خرافات الأقدمين عن وشائج الأحياء إلا خيل إلى أنها تنطوى على أكثر من خرافة أو لعبة خيال ، وتساءلت قبل نيف وثلاثين سنة عن مغزى تلك الأساطير التى تحكى عن أناس لهم أجسام آدميين ووجوه كلاب ، أو مغزى تلك التماثيل التى تجمع بين أجسام الوحوش ورؤس الآدميين ، فقلت من كتاب الفصول : « ما مغزى هذا الإجماع والتواتر ؟ وماذا فى طى هذا الاعتقاد بأن الإنسان يتحول أحياناً من هيئته إلى هيئة حيوان أدنأ منه ، أو أن فى عالم الحياة مخلوقاً بعضه إنسان وبعضه حيوان ؟ هذا شعور لم يرد إلينا من ناحية الحواس ولكنا لا نجهله ، وصحيحٌ أن الخيال مفطور على مزج أشكال الحس والباس الموجودات لباس الإنسانية ، ولكن لماذا فطر الخيال على ذلك ؟ أكان يستحيل أن يفطر على غير هذه الفطرة ؟ وهل

لو خلق الإنسان من غير عنصره المعروف كان يتخيل هذا الخيال بعينه ؟ إلا يجوز أن يكون مغزى هذا الاجماع والتواتر أن فى جبلة الانسان شعوراً راسخاً بوحدة الخلق وتلاحم سلسلة المخلوقات . . . . شعوراً أعمق من الفكر لا بل أعمق من الخيال نفسه ، يتكلم باللسان فيكنى ويلفق ويتكلم بالبديهة فيصرح ويصدق ؟ ولماذا تنفى وجود شعور كهذا يصل الإنسان على وجه ما بشىء من أسرار الحياة مع علمنا أن الإنسان قد اتصل بالحياة قبل أن يصله بها عقله وحواسه ؟ أليس ترجيح وجود هذا الشعور أولى وأحرى بقدم العلاقة بين الأحياء والطبيعة ؟ . . . . فلا يبلغن من قصور العقل ألا يصدق إلا بالعقل وحده ، ولا يبلغن من ضيق النظر أن نقسر حواس النفس كلها على أن تنمو نمو الحواس الخمس . كأن الإنسان لا يتصل بالدنيا إلا بها ، وكأنما الخيال ليس جزءا من الإنسان كما هى جزء منه . . . »

وهذا الشعور الكمين لا أحسبه كان غائباً عنى يوم نشرت خلاصة اليومية وكتبت فى تصديرها « إن الإنسان حيوان راق ولكنه لا يزال حيواناً » . . . ويوم كتبت مجمع الأحياء وعقدت فيه مؤتمر الحياة بين الحمامة والأسد والنمر والقرد والثعلب

والإنسان والمرأة وسائر الأحياء ، ثم يوم رثيت كلبي بيچو وجعلته شاهدي على بعض المذاهب فى التربية .. والدراسات النفسية .. فاذا كانت « حديقة الحيوان » فكاهة من فكاهات المجالس فليست هي من الفكاهات العابرة ولا من الفكاهات الرخيصة ، لأن لها أصلا أصيلا من الجد بعيد القرار

ونظر صاحبي إلى يمينه وأوشك أن يجفل جفلة الخوف ؛ لأنه رأى هنالك تمثالي بومتين دقيقتين ، يحفان بالساعة الصغيرة عن اليمين وعن الشمال . وقال : رب هذا من ذاك ! . . ثم قال ترى لو دخل صاحبك ابن الرومي هذه الحجرة ونظر إلى هذين التمثالين المخيفين — ماذا كان يصنع يا ترى ؟

قلت : لا شك أنه كان ناكصاً على عقبيه على الأثر ، و إن كنت قد وضعت هذين التمثالين فى موضعهما وتحديت الشؤم كله لأجله هو جزاه الله

لاحقه الشؤم فى حياته وقل منصفوه بعد مماته ، وضل معظم النقاد فى أمره لأنه من طراز غير الطراز الذى يقيسون عليه ، فهو عندى — بغير خلجة من الشك — وحيد شعراء العالم من مشرقه إلى مغربه ومن قديمه إلى حديثه فى ملكة « الوعى

والتصوير» ... وهى أنفس الملكات التى يرزقها رجال الفنون ، فلا يضارعه فى هذه الملكة شاعر عربى ولا شاعر أعجمى، ولا يناظره فيها فحل من فحول التشبيه والتصوير فى أدب اليونان والرومان ولا فى أدب الغربيين المحدثين ، ولم أعرف بين أدباء الأمم الأخرى التى إشتهرت بدقة التشبيه — كأدباء الصين واليابان — من يجرى فى غباره أو ينسج على غراره . ومثلٌ واحد يغنى عن مئات الأمثال ، وهو وصفه لحقل الكتان حيث يقول فى بيتين اثنين :

وجلس من الكتان أخضر ناعم   توسّنه وأنى الرباب مطير
إذا أطردت فيه الشمال تتابعت   ذوائبـه حتى يقال غدير

فالواعية الفنية وحدها هى التى تغريه بوصف حقل من حقول الكتان التي مرت بألف شاعر منذ الخليقة ولم يلتفتوا إليها ، لأن حقل الكتان لا يحسب من موضوعات الوصف التقليدية بين شعراء التقليد ، فليس هو بروضة من رياض الورد والياسمين وليس هو بستاناً من بساتين الفاكهة والثمرات ، ولاهو بمنزه من منازه الحسان أو موعد من مواعد الغرام . فانظر كيف علق هذا المنظر بوعيه اللاقط المستوعب وكيف أحصى عليه كل ما يحصيه التصوير في شرط النقد الحديث ، بعد طول المشاهدة والمراجعة

لآيات الأساتذة من نوابغ التصوير... وأذكر كيف صنع ذلك بداهة وابتداعا غير عامد ولا متنبه، وهم يتعمدون ما يسجلون من ملاحظات النقد ويتنبهون إليه

فالنقد الحديث يشترط على المصور النافذ البصر والبصيرة أن يستوعب المنظر فلا يفوته اللون ولا الملمس ولا الزمان ولا جو المكان ولا الحركة التي تشيع فيه إن كانت فيه حركة، أو السكون الذي يشمله أن كان به سكون

وكل أولئك تجده فى البيتين الاثنين مطبوعا منقولا إليك نقل البداهة عن تلك الواعية المستوعبة التى لا تفوتها مدركة من مدركات الحس والخيال : لمح اخضرار اللون ، ونعومة الملمس ، وأحاط بوقت الصورة كما مثلت أمامه فهو وقت الوسن ، وأحاط بجو المكان فهو المكان الذى يطل عليه رباب مسف فويق الأرض يؤذن بالمطر القريب ، وأحاط بالحركة وبمصدرها من ريح الشمال فاذا رؤوس الشجر تموج بالحركة الذاهبة الآيبة فكأنها صفحة غدير . لا موضع لنقص فى الصورة ولا محل فيها لزيادة ، وليس أصدق من الوعى الذى أحسن اللقط وأحسن التمثيل فى لمحة عين وفى بيتين اثنين .

مثل هـذا المقياس الذى تقاس به الواعية الفنية لم يكن مقياس أولئك النقاد الذين جهلوا فضل ابن الرومى وأشادوا بفضل سواه ، ولو أنهم تتبعوا مئات الأبيات من شعره — بل ألوفها — على هذا المتوال لعلموا أنه مغبون — جد مغبون — حين يقرن بشاعر من شعراء العالم كائناً ما كان فى هذه الملكة الفريدة... فكيف بالغبن الذى يصيبه إذا قدموهم وأخروه، وأشادوا بفضلهم وأنكروه

أثارنى هذا الظلم فآليت لأدفعنه عنه ، فإذا بصحبى يثنوننى عن إنصافه وهم وجلون، ولئن كانوا غير جادين لقد كانوا كذلك غير مازحين. فما لقينى أحدهم مشتغلا به إلا صاح بى ! حذار أنه مركب غير مأمون العثار !! والرجل موصوف ببأسه فى شؤمه، فلا شأن لك بإنصافه وظلمه ، ودعه لقضائه ، واقنع بأنك من قرائه ، فقد يتحداك شقاؤه المعهود إذا تهجمت على حرمة شقائه ! . . .

وكانت ثورة فأصبحت ثورتين : لقد ذل من يخاف ذلك الشؤم المعتز بجبروته ، ولقد طغى ذلك الشؤم الذى يسطو على فريسته فى حياتها و بعد مماتها ثم ينذر بالنقمة من يتصدى لغوثها، فإذا أنصفنا الشاعر المغبون وغضب الشؤم الواقف له بالمرصاد فليصنع الشؤم إذن ما يشاء .

وسكنت هذا البيت ورقمه ثلاثة عشر، ووضعت فيه التليفون ورقمه يومئذ مبدوء بثلاثة عشر ، وجعلت أسأل الشؤم فى كل دعوى من دعاويه وأولها دعواه الكبرى على البومة المسكينة . ما لهذه الطريدة المظلومة وهى قد تركت الدنيا والنهار للانسان ولاذت منه بالليل والخلاء ؟ وما عيبه عليها وهى أوفى الطيور فى عشرة الأليف منها للأليف ؟ أليست هى إحدى الأحياء النادرة التى يسكن الزوج منها إلى زوجه مدى الحياة ؟ أليست هى التى تغنى لنور القمر ولعزلة الليل ولا تقحم صوتها على من يأباه ؟ ألم تكن عند الأثينيين — وهم عباد الجمال — رمزاً للمدينة ينقشونه على الدراهم مع أغصان الزيتون ؟ فإذا جنى الشؤم على سمعتها ولاحقها الظلم فى خلوتها فليصنع ما بدا له . فإننا نتلقاه منها باثنتين لا بواحدة ، لأنها لا تحب الفراق ، وأن زعموها نذير الفراق

قال صاحبي : وكيف رأيت العاقبة ؟

قلت : خير بعد شر ، وفلاح بعد كفاح ، فلا أخفى عليك يا صاحبي أن أمر ابن الرومى فى سمعته تلك أمرٌ عجيب مفرط فى العجب ، وأننى لو صدقت خرافة من الخرافات لصدقت خرافة الشؤم والتشاؤم ، وصدقتها فى ابن الرومى هذا قبل غيره .

فما حدث منه قد شهدته بنفسي وخبرته فى صحبى ، ولم أعتمد فيه على رواية الأقدمين ولا على مبالغات المتندرين ، لأننى تعاقدت على طبع كتابى عنه مع مدير المطبعة فمات هو وسجنت أنا قبل الفراغ من ملازم الكتاب الأولى . وكان وزير المعارف « أحمد حشمت » قد أوصى بطبع ديوانه وأقام على تصحيحه مفتش اللغة العربية فى الوزارة ، فعزل الوزير والمفتش وماتا قبل الفراغ من جزئه الثانى ، وكتب المازنى فصولاً عنه فكسرت رجله ، ونشر صاحب الثمرات قصائد من ديوانه فكسرت رجله ، وهم صاحب البيان بنشر مطولاته والعناية بأخباره فتعطلت مجلة البيان ، فلو كانت هذه المصادفات أسباباً يؤخذ بها وترتبط بنتائجها لكان الشؤم المزعوم حقيقة من الحقائق العلمية التى لاشك فيها ، ولكنها مصادفات سيئة تقترن بهامصادفات حسنة ، ولا يجوز لنا أن نركن إلى هذه ولا إلى تلك على إنفراد ... فقد انجزت كتابى عن ابن الرومى فكانت السنة التى ظهر فيها من أسعد السنوات فى حياتى الخاصة وأبرزها فى حياتى العامة ، وسلك الكتاب سبيله بين مراجع الأدب المعدودة فى هذا الجيل ، فإن

كان الشؤم على صولته التى يتخيلونها فقد تحديناه ، وبححنا فى تحديه بحمد الله

* * *

ولم يكن فى الحجرة شىء سبقته إلى سكن هذا البيت منذ سكنته قبل زهاء عشرين سنة ، فكل ما فيها قد دخل البيت يوم دخلته و بقى هناك كما بقيت . إلا بعض الصور ، وَالمذياع !

ففيها صورة للقصر المعروف باسم « أنس الوجود » من صنع الفنان التركى القدير الأستاذ هدايت . نلمح من نظرة واحدة إليها غرابة الجو المصرى والألوان المصرية الوضاءة على آثارنا الخالدة كما تبدو فى عينى الفنان الغريب عن الديار

وفيها صورة لى من صنع الأستاذ « أحمد صبرى » وهو من أساطين فن التصوير فى هذا البلد ، وله ريشة ثابتة وألوان صحيحة وطريقة مأثورة عن عباقرة المدرسين الأقدمين ، لا تستهو يه البدع المستحدثة ولا يروقه من ملامح الوجوه إلا ما ينم على جد واهتمام

وفيها صورة لشاطئ الزمالك من صنع المصور الموهوب الأستاذ شعبان زكى ، وهو فنان ينظر ويحلم و يسبغ من أحلامه

كثيراً على المناظر الطبيعية أو الحوادث التاريخية التى يسجلها ، ومن آثاره التى تتجلى فيها أحلام التصوير والأدب صورة امرئ القيس والعذارى وهو مرابط لهن على حافة الغدير .

وفيها صورة لترعة المحمودية من صنع الفنان المطلع الأستاذ صلاح الدين طاهر ، وهو لاشتغاله بتصوير الوجوه والأشخاص واطلاعه على الدراسات النفسية قد سرت إلى مناظره الطبيعة عدوى عنايته بالوجوه والنفوس ، فلا تخلو مناظره من ملامح « سيكولوجية » . على غير الأحياء

وفيها صورة «أبى قير» لفقيد الفن الأستاذ لبيب تادرس، وهو فنان مجتهد عوجل فى شبابه قبل أوانه ، وكان له اقتداء بالمدرسة الإحساسية فى التلوين وتمثيل الأشياء والأشخاص من بعيد .

وهناك تمثال نصفى أهداه إلىّ بعض الهواة ممن يشتغلون بغير النحت ولا يظهرون آثارهم الفنية .

أما المذياع فلم يكن قد ذاع يوم سكنت هذه الدار ، ولم أكن أرى منه فى مصر الجديدة إلا أدوات عاجلة يركبها بعض الكهربائيين على أيديهم ، وتسمع أو لا تسمع كالمركب الشراعى الذى يسير أو لا يسير « على حسب التسهيل »

قال صاحبي : ان نقل الصوت من المكان البعيد معجزة كافية ، فكيف إذا أضيفت إلى هذه المعجزة معجزة النقل من زمان بعيد ؟ إنهم يزعمون ذلك فى الإمكان ، و يقولون أن استخلاص أصوات الأقدمين كما نطقوا بها فى حياتهم ليس بالمستحيل . لأنهامحفوظةفى بعض طبقات الجو العبيد ، لايؤثرعليها الاختلاط إلا كما يؤثر الاختلاط على أصوات المحدثين

قلت لو كان لى لسانان لقال أحدهما مرحى ! وقال الآخر فى الوقت نفسه : أعوذ بالله ! . . .

اننا نحب أن نسمع الأنبياء وهم يخطبون والأبطال وهم يناضلون،والشعراء وهم ينشدون ،وأصحاب الأغانى وهم يترنمون... ولكن من من هؤلاء الأبطال يرضى أن تسمعه وهو فى خاصة وقته بين أهله أو ندمائه ! ومن من الناس فى عصرنا يحب أن تنقل عنه كل كلمة قالها وكل سر همس به وكل آهة من آهات الضعف فارقت شفتيه ؟ ان الإستعاذة بالله هنا تحتاج إلى مائة لسان إذا كان الترحيب يكفيه لسان واحد . فليكن « وعيد » العلماء إذن من المستحيل ، وإلا أصابهم منه ما يصيبون به الآمنين فى القبور

عشرون سنة بين هذه الجدران الأربعة !

قالها صاحبي وهو يؤذن بانتهاء السياحة التي أرادها أو أرادها الناشرون ، وكأنها لم تكن ستنقضي في حجرة أخرى من حجرات الاستقبال في بيت من البيوت ؟

قلت : أكثيرة هي على هذه الجدران ؟ فعلى أي الجدران هي ليست بالكثيرة ؟

قال : لعلها كانت أولى أن تنقضي في التنقل من مكان إلى مكان ، ومن حي إلى حي ، ومن دار إلى دار

قلت : إن السياحة يا صاحبي لها حجتها الناهضة فما هي بحاجة منا إلى حجة جديدة . ولكن المكث في المكان الواحد أيضاً له حجته التي تضارع حجة السياحة ولا تقصر عن شأوها ، فإذا كانت مشاهدة الأمصار ومداولة الديار تعلمنا الحكمة وتبصرنا بألوان الحياة فاعلم يا صاحبي أنني لا أعرف شيئاً ينفذ بنا إلى حقائق الآمال والمخاوف، وبواطن الأفراح والأحزان ، كمراسنا لها في المكان الواحد الذي يقل فيه التغيير

إذا وجل القلب فهذا الكرسي يعلمني أن الخوف عبث وأن الذي أخافه قد يخطئني ويسبقه إليّ الذي أرجوه . فكم من مرة جلست

عليه أطيل النظر فى أعقاب الأمور وأقلب الظنون فى كل وجه من الوجوه ، ثم جاء الوقت المحذور ولم يجئ معه ما حذرناه !

وإذا تقطعت النفس حسرات على نعمة من نعم العيش فهذه الشرفة تقول لى : بل انتظر طويلا أو قصيراً فسنرى كما رأينا وسنعلم كما علمنا إنك ستعيش بغير هذه النعمة التى كنت تقرنها بالحياة ، كما عشت الشهور والسنين بعد تلك النعم التى أدبرت ثم زالت وكنت تترقب — بل تتمنى — أن تزول الحياة قبل أن تزول

وإذا رجوت أو قنطت ذكرنى هذا المقام أن القنوط يخدع كما يخدع الرجاء ، وإن رجاء اليوم وقنوطه ، كرجاء الأمس وقنوطه ، كلاهما فى طبائع الصدق والكذب سواء

وبعض هذا يحبب إلى البقاء حيث بقيت

ولكننى لو سئلت : لم بقيت أول الأمر حتى طال بى البقاء فلست أدرى ما أقول ، وقد أجيب كما أجبت السؤال الذى سئلته فى الصحف : « إنها الكتب وما أعانيه فى نقلها وترتيبها من العناء الذى لا يوكل إلى آخرين »

ثم أقول كما قلت : « وهو سبب وجيه ولا جدال ، ولكنى

أحس كلما أجبت به أنه طبقة من الأسباب وراءها طبقات .

ولعلى أوجز الحقيقة كلها ببيت حافظ ابراهيم الذى قاله فى مثل هذا المسكن وأن لم تطل مدته فيه كهذا الطول :

كم مر لى فيه عيش لست أذكره ومر لى فيه عيش لست أنساه

فهذا البيت قد كتبت فيه خير كتبى وأحبها إلىّ ، وقد عشت فيه تلك الكتب عيشاً حياً باقى الآثار قبل أن أنقلها من عالم النفس إلى عالم الأوراق ، وهذا المسكن قد صعدت سلالمه ثلاثاً ثلاثاً ثم صعدتها اثنتين اثنتين ، ثم أصعده درجة درجة على غير عجلة ولا اكتراث ، وهذا المسكن قد نزلت به والشعرات البيض يتوارين فى السواد ، وما زلت أنزل به والشعرات السود يتوارين فى البياض . . .(١)

وقد استقبلت فيه آمالاً ، واستحييت فيه ذكريات ، ومن غار على ذخيرة آماله و بواطن ذكرياته فقد يغار على مواطنها أن تستباح بعده لكل من يشاء

* * *

تلك يا صاحبي سياحتى التى أردتها فى بيتى وأردت أن تحيط

(١) المصور فى ٧ يوليو سنة ١٩٤٤

بما يحوطنى فيها من شاغل أو عمل أو مقال ؛ أطلعتك منها على ما يعنى الناس وتتصل فيه حياة الكاتب بين العالم والدار . فأما الذى يعنينى ولا يعنى أحداً غيرى فلأن أقول أنا إنه لا يعنيهم خير من أن يقرأه قارئ فيسأل قارئاً آخر : وما الذى يعنينا نحن من هذا المقال ؟ ثم يتفقان على الجواب !

وإذا شاء القارىء فلتكن هذه دعواى لإبداء ما أبديت وإخفاء ما أخفيت . إذ الواقع أننى لا أحسب القارئين الذين يتفقان على الجواب يكثران بين أفراد الناس . لأن الفضول قد يغرى الأكثرين بما نخفيه دون ما نبديه

مطبوعات حديثة

ص		
٢٠	الأزمات الروحية وعلاجها	للدكتور محمد زكى شافعى بك
٣٠	مشكلات الأطفال اليومية	ترجمة الاستاذ اسحق رمزى
٣٠	التربية الانجليزية	للاستاذ محمد عطية الابراشى
٢٥	غادة رشيد	للاستاذ على الجارم بك
٢٠	أنطونى وكليوبطرة	ترجمة محمد عوض ابراهم بك
٢٠	مجلة علم النفس (العدد الأول)	

رئيسا التحرير: الدكتوران يوسف مراد ومصطفى زيور

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف
بمصر

مكتبة الأطفال

بقلم الأستاذ كامل كيلانى

مجموعة نفيسة نادرة تحتوى على أكثر
من أربعين كتاباً مصوراً ، مطبوعة
طبعاً أنيقاً ، شهد لها رجال التربية والتعليم
بأنها « تحبب القراءة إلى كل ناشىء » .

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف
بمصر

قصص راقيـــة وأدب رفيع

ص	الكتاب	المؤلف
١٨	الحب الضائع	للدكتور طه حسين بك
١٨	صوت باريس (الجزء الثانى)	للدكتور طه حسين بك
٢٥	شجرة البؤس	للدكتور طه حسين بك
٢٥	ابراهيم الثانى	للاستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى
٣٠	بنت الشيطان	للاستاذ محمود تيمور
٨	سوء تفاهم	للدكتور بشر فارس
١٨	أوراق الخريف	للسيدة أمينه السعيد
٢٠	سيد العزبة	للسيدة ابنة الشاطىء
٢٠	ألوان من الحب	للاستاذ عبد الرحمن صدقى
٢٥	الخطايا السبع	للاستاذ على أدهم
٢٠	قصص روسية	للاستاذ محمد السباعى
١٨	رجلان وامرأة	للاستاذ محمد على غريب
٢٠	الموجة العذراء	للاستاذ أحمد الصاوى محمد
٢٠	حياة قلب	للاستاذ أحمد الصاوى محمد

ملتزم الطبع والنشر

دار المعـــارف

بمصـر



رمز

الطباعة الأنيقة

وشعار

المؤلفات النفيسة

ورسالة

الفن والعلم والأدب

إلى قراء العربية

فى جميع الأقطار

دار المعارف للطباعة والنشر

المحل الرئيسى بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة

فرع الإسكندرية : ٢ ميدان محمد على

مكتب فلسطين وشرق الأردن : شارع مأمن الله بالقدس

ولها متعهدون ببيروت ودمشق وبغداد

